المرأة العربية

في جاهليتها وإسلامها

ألَّفَهُ

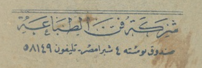
عبد الله عفيفي

محرر عربي ديوان جلالة الملك

الجزء الثالث

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد





في جاهليتها وإسلامها

ألَّفَهُ

عبد الله عفيفي

محرر عربي ديوان جلالة الملك

الجزء الثالث

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

شركة فن الطباعة

صندوق بوستة ٤ شبرامصر - تليفون ٥٨١٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمـة العربيـة

بين الرأى والهوى

كان على العرب بعد أن لحق رسول الله بربه أن يبتغوا الوسائل لنشر دينه وإذاعة دعوته ، وكان عليهم حين لا تجد الحجة البالغة سبيلاً إلى القلوب أن يجعلوا السيف كفيلاً بنشرها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبقدر ما كانت الأمانة الملقاة على عواتقهم فادحة والغاية بعيدة كان جهدهم كذلك فادحاً وهمتهم بعيدة ، فقد وثبوا وثبة رجفت لها قوائم الأرض ، فلم يبق سهل ولا جبل ، ولم يبق قطر ولا مصر ، ولم يبق عرش ولا تاج إلا تبدل حالاً بعد حال ، وكذلك صاروا يضربون فى مناكب الأرض ، فمن وادعهم ودخل فى ذمتهم عاهدوه على الوفاء له والذود عنه ، ومن حشد لهم ونهض لقتالهم فرقوا جمعه ومزقوا شمله ونكسوا عرشه وتولوا حكومته . وما كانت قوتهم التى أخضعت لهم الرقاب وذللت لهم الصعاب فى وميض سيوفهم ولا عديد جنودهم ولا قوة سواعدهم ولا نفاذ آرائهم فما من أمة ممن ناصبوها الحرب إلا وهى أشد منهم قوة ، وأكثر عدداً ، وأسنى تدبيراً ، وأنفذ تفكيراً ، ولكنها كانت فى قلوبهم التى ملأ الإيمان أقطارها فلم يَدَع فيها مطمعاً فى أمل ولا مستَمتعاً بمتاع ، وفى نفوسهم التى استمكنت العفة من صميمها فلم تَفْتِنْها المآرب ولم تلوثها الشهوات ، وفى مشاعرهم التى لا تَرِيع لآية من آيات الكتاب إلا ترقرقت فى العيون عَبْرَةً جارية ، وتأججت فى الصدور ناراً حامية . تلك كانت قوتهم التى أعزهم بها الإسلام فآمنهم من خوف ، وجمعهم من شتات ، وجعلهم خير أمة أخرجت

للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . على أن تلك القوة المروِّعة كان يساورها خطر مُحيق من الفتنة بما حوت الممالك المفتوحة من عيش ناعم ، ومُلك باسم ، وزهو ولهو ، وعزف وقصف ، وما وراء ذلك مما يفْسِد سرائر القوم ، ويكدر ضمائرهم ويطفئ نور اليقين من قلوبهم ، ويخمد نار الحميّة من صدورهم .

وكان الإشفاق من وبال ذلك الداء أشد ما خامر قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيله ألقى على السابقين الأولين من المسلمين كلمته الخالدة « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . ومن أجله حرّم على رجال المسلمين أن يتحلوا بالذهب وقال للمتختم به : « يعمِد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده » وحرَّم عليهم لبس الحرير وقال : « إنما يلبسه من لاخلاق له » ، وأشباهُ ذلك ، مما كبح به الرسول جماح الفِتن وأخمد به جمرة الشهوات كثير لا يناله التعداد .

وكان ذلك الإشفاق مما يهيج اللوعة والحسرات فى صدر الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . ومن قوله وهو مرتكس فى مرض موته يخاطب المهاجرين من أصحاب رسول الله : « والله لتتخذُن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمُن النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لأن يُقدَّم أحدكم فتُضربَ عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا » .

وبينا كان الفاتحون يمعنون فى أعماق فارس والروم وكانت مغانم العدو وسباياه تتوارد على الخليفة الأيِّد عمرو بن الخطاب — بينا كان ذلك كله كان عمر فى شُغُل بما عسى أن يصيب العربَ من تلك الدنيا المقبلة والحياة المجْلُوَّة ، وهو الذى يقول بعد أن وطىء المسلمون أعراف مدائن كسرى « ليت بينى وبين فارس جَبَلاً من نار لا نصل إليهم ولا يصلون إلينا » .

وكانت رهبة الدين وهيبة الخلافة لا تزالان تعقدان على عيون العرب حجاباً لا ينفذ النظر منه إلى متاع الحياة ، وكانوا لا يزالون من نشر دينهم على غاية لم يبلغوها وهى غاية تملك عليهم خواطر نفوسهم ومدارج أنفاسهم فلا يشعرون إلا بها ولا يَحْيَوْنَ إلا لها ولا يلمحون ما دونها فلم تأخذهم لذلك فتنة ولم تفتنهم شهوة ، ولم تبهرهم زينة . ولعلك تعلم أن مما أثار الناس على الشهيد المظلوم عثمان بن عفان وحملهم على اقتحام داره وسفك دمه ميله قليلا إلى ترفيه نفسه وساقوا من الأمثلة لذلك تعلية بيته وتزيين جدرانه واتخاذ الوصائف لخدمته . وكانت فتنة عاتية قاتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً وأذاقوا بعضهم بأس بعض ولم تنكشف حتى عصفت بعصر الخلافة وذهبت بجيل النبوة .

وجاءت الدولة الأموية ، وفى عهدها أخذت رهبة الدين تنحسر عن قلوب العرب وقيلت أقوال لم تكن قبل تُقال واجترُحت أفعال لم تكن من قبل تفعل ؛ وأى قول أشنع من أن يقوم شاعر مسلم بين سمع المسلمين وبصرهم فيقصّ عليهم حديث اعتدائه على أعراض المسلمات ثم لا يجد من الناس دفعاً ولا استنكاراً . بل أى جرم أبشع من أن يقف شاعر نصرانى بين يدي الخليفة الأموى فيسخر من شريعة الإسلام بقوله :

ولست بصائم رمضان عمرى ... ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بقائل كالعَير يوماً ... قبيل الصبح : حى على الفلاح
ولكنى سأشربها صبوحاً ... وأسجد قبل منبلج الصباح

ثم لا ينثنى من لدن الخليفة إلا مثوباً موفوراً .

وهل أتاك حديث أبناء النبى وأحبائه الذين عاهد الله المسلمين على مودتهم بقوله تعالت آيته « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » أرأيت كيف قتلهم رجال هذه الدولة على مدرجة الطريق طعناً بالرماح وحزاً بالسيوف وصبراً

بالظمأ ثم ساقوا نساءهم سَوَاهِمَ الوجوه حواسر الرءوس يحملهم الإبل المُعَرَّاة من بطحاء كربلاء إلى مقر المُلك الأموى بدمشق .

والمسلمون بمسمع وبمرصد لا جازع منهم ولا متصدع

على هذا السنن من العقوق للإسلام سار الأمويون فى غزو مدينة رسول الله وإباحتها وهدم الكعبة وإحراقها .

وكان أكبر الظن بالقوم وتلك حالهم فى انتهاك الحرمات أن يستمتعوا بكل ما حوت البلاد المفتوحة من لذة ونعيم ، لولا أن معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى أمية وفحل أجمتهم نفخ فى العرب روح العصبية العربية وحكم بهم الأمم على أنهم السادة وغيرهم المسودون وأنهم الآمرون وغيرهم المأمورون فحجزهم بذلك عن مخالطة من يلونهم من الأمم إلا مخالطة الحذِر المترفع الذى يرى الاتصال الوثيق بمواليه منقصة وعاراً .

ذلك إلى أن العرب قَضَوا الشطر الأكبر من ذلك العهد وهم فرق متناحرة ، بعضهم لبعض عدو ، ليس منهم إلا من كفَّر خصمه واستحل دمه ؛ فهناك أهل الشام ومَنْ حولَهم من الأعراب يشايعون بنى أمية ، وهناك أهل العراق يبثون الدعوة لبنى هاشم ، وهناك أهل الحجاز يلوذون بابن الزبير ، وهناك الخوارج الذين خرجوا على الخلافة الموروثة والملك المغصوب ؛ فأى أولئك يتسع له الوقت ليمرح فى مجال اللهو ويأخذ بأسباب النعيم .

والحق أن شيئاً من وسائل اللهو جُلب إلى الأمصار الثلاث — دمشق والبصرة والمدينة ، وتذوقه الخواص من سادات العرب حين اطمأن المُلك وانقطعت أواصر الفتن ، ومن هذه الملهيات فن الغناء ، جاء به جماعة من موالى الفرس وعلموه القيان الفارسيات فأسمعن العرب أشعارهم موقعة على النغم الفارسى ؛ على أن

ذلك لم يَعْدُ القليل من ذوى الجاه يسمعونه فى كثير من التجمل والاعتدال .

وكان حكماء بنى أمية وعظماؤهم يتواصون باجتناب السماع وما يستدعيه من تبسط وابتذال . وهذا الوليد بن عبد الملك يطرق سمعه غناء مغن فى عسكره ويرى جارية من جواريه تصغى إلى الصوت فيدعو بالمغنى ويأمر بخصائه ثم يأمر بخصاء مخنثى المدينة الذين يغشون الديار ويغنون نساءها بالصوت المخنَّث والكلام المبذول ؛ وهذا مَسْلَمَة بن عبد الملك يستمع غناء المغنيات فى قصر أخيه الخليفة سليمان فيزجره فى غير رفق ولا هوادة فلا يسع الخليفة إلا أن يطوى بساط الغناء ثم لايعود إليه .

وكان من سنة المستمعين من خلفاء بنى أمية أن يجلسوا وبينهم وبين ندمائهم ستر مضروب تصوناً واستتاراً واحتفاظاً بما يطلبه الملك من هيبة ووقار . ولقد مكّن الخليفةُ الخليع الوليد بن يزيد لخصومه من أهل اليمن أن يهتكوا عليه ستر الخلافة ويقتحموا عليه دارة الملك ويقتلوه جهرة بين قومه وعشيرته لأنه انحرف عن سبيل آبائه إلى سبيل اللهو والخلاعة والابتذال . وفى ذلك يقول قائلهم :

قتلنا الفارس المختال لما … أضاع الحق واتبع الضلالا

ألا أبلغ بنى مروان عنى … بأن الملك قد أودى فزالا

ولم يكن للجوارى فى ذلك العهد شأن ولا خطر ، فلم يُتخذن إلا قهارمَ للخدمة أو سرارىّ للاستيلاد ؛ وهم يسمون الجارية « جَفن سلاح » تشبيهاً لها بغمد السيف الذى لا شأن له وإنما الشأن لما فيه . وقد ابتكر لهم هذه التسمية هَمَّام بن غالب الفرزدق فى قوله وقد ماتت جارية حامل له :

وجفن سلاح قد رزئت فلم أُنح … عليه ولم أبعث عليه البواكيا

وفى جوفه من دارم ذو حفيظة … لوَانّ المنايا أمهلته لياليا

وكانوا ينكرون الهُجَناء — أبناء الإماء — أن يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة ! وقد زجر هشام بن عبد الملك زيدَ بن على عن طلب الخلافة بقوله : « بلغنى أنك تطلب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة ! »

وكان مَسلمة بن عبد الملك أشجع إخوته وأبعدهم همة ، ورغم ذلك دُفِع عن الخلافة دونهم لأنه هجين .

وكانت المرأة العربية بفضل تلك العصبية العربيـة فى الذّروة والسنّام من الإعزاز والإكرام. فقد أصبحت تجر أذيال النعمة بين خدمها ووصائفها وترفع أعلام العزة بين آلها وذويها من الخلفاء والأمراء والقـادة والولاة ومن إليهم من كل ذى موقف مشهود ومقام محمود .

ولم يؤثر ذلك النعيم الذى اجتَلَتْه المرأة العربية فى شىء من نقاء فطرتها ولا صفاء طبيعتها ولا قسوة نفسها ولا توفرها على تربية أبنائها لأن العصبية العربية استبقت للرجل حميته وغيرته وعفته، والرجل مرآة المرأة .

على أن هذه العصبية التى صانت نفوس العرب عن التهور فى ضلال الشهوات كانت مزلق الأمويين إلى السقوط الذى لا قيام بعده .

فإن الفرس الذين أوطنهم العرب مواطن الخسف وأوردوهم موارد الهوان لم يطيقوا القرار على ذلك طويلا . وكيف يطيقونه وهم أهل الرأى والعلم والتدبير والعدد ؟ وكيف يقرون وقد وجدوا فى صفوف العرب ثغرة يقاتلون منها الأمويين باسم الدين ؟ أو لم يتتبع الأمويون سلالة النبى بالقتل والصلب والحبس والتشريد ؟ فما لهم لا يغضبون لآل النبى ويثورون بهم ويتخذون من دمائهم وأشلائهم سهاماً مسدودة على أعدائهم ؟ أو ليس قميص عثمان المخضب بدمه هو الذى جمع لمعاوية الجموع وساق له الجيوش حين نصبه للعيون بمسجد دمشق حتى لبس به قميص

الخلافة ؟ إذاً فلتكن الدماء المراقة على بطحاء كربلاء هى التى تدك عروشهم دكاً ! والفرس أعرف أمم الشرق القديم بتدبير المكايد وتنظيم الثورات ، ولا تنس أن العصبية العربية أرجعت العرب إلى قديم أمرهم قبل الاسلام من فرقة وشتات ، فبعد أن كانوا جميعاً قلباً واحداً تهزه كلمة واحدة وتدفعه عقيدة واحدة وتجتذبه غاية واحدة أصبحوا شعوباً وقبائل ! فهنالك قحطان وعدنان ، وهنالك مضر وربيعة ، وهنالك قيس وتميم ، وهنالك فرعا قريش من أمية وهاشم ، وكل منهم يفتخر بعزه القديم ومجده الصميم . وفى تفاريق هذه الفرقة جمع الفرس شملهم وألفوا وحدتهم وأحكموا مادتهم وجمعوا عديدهم ثم استاقوا الجيوش الزاخرة من إقليم خراسان فسارت حتى التقت بجيوش بنى أمية على نهر الزاب ولم تكن إلا جولة بعد جولة حتى انتكث شمل الأمويين والتاثت صفوفهم وتبددت جماعتهم وفر خليفتهم حتى لقى مصرعه فى مصر ، وعلى أنقاض ذلك الملك الدابر قامت خلافة بنى العباس

وكان ملك بنى العباس ملكاً فارسياً يعلوه خليفة عربى ، فالفرس هم ركن الخلافة ودعامتها ، وهم ولاتها وساستها ، وهم كفاتها وقادتها ، وهم مشيروها ووزراؤها ، وهم مفكروها وعلماؤها ، وهم كتابها وشعراؤها ، وهم مغنوها وندماؤها . وانتقلت الخلافة من بلاد العرب إلى العراق الفارسى فأصبحت بغداد خلفاً من المدائن

وأراد الفرس أن يخمدوا آخر جذوة من الحمية العربية وأن يقطعوا آخر عقدة من العصبية العربية فأجلبوا عليهم بكل ما يوهن النفوس ويصبى القلوب من سماع وشراب وكواعب أتراب ، وأغرقوهم فى بحر طام من السرف والترف والزهو واللهو والمحارم والمآثم ، ولم يمض غير قليل حتى راح العرب يخطرون فى مطارف الفرس ويلعبون فى ملاعب الفرس ويشربون فى مشارب الفرس ويتأدبون بآداب الفرس ويتخلقون بأخلاق الفرس . والمرأة والرجل كقوتى الكهرباء إذا تأثر أحدهما تأثر الآخر ، وكذلك بدأت المرأة العربية تتأثر

وكانت لتلك المرأة منزلة فى القلوب تعنو لها الوجوه وتطمئن دونها النفوس ، ولم يكن مرجع ذلك لما لها من جمال ودلال وغضارة ونضارة وخلابة ودعابة ، فما كانت من ذلك فى قليل ولا كثير ، ولكنها كانت فيما تفردت به بين نساء العصور الأولى من سمو الروح إلى أبعد مرتقى ، وصفاء النفس إلى أتم غاية ، وكان من أثر ذلك ما ذاع عنها من نبل وسناء وعزة وكبرياء وجلال فى الطبع والخلق ، وترفع فى القول والفعل ، وإسعاد للزوج والولد ، حتى كان من ثمرتها تلك الأمة التى جمعت أطراف الأرض وملكت نواحى الأمم فى أقل من خمسين عاماً . ومثل تلك المرأة إذا انحرفت عن المحجة وانثنت عن الغاية وأسفت الى اللهو واستراحت إلى الشهوات خمد منها روح السمو وانهتك عنها ستر الجلال ، وذلك ما قاد المرأة العربية إلى شفير الهاوية

وكانت أمور صرفت الرجل العربى عن المرأة العربية بعد أن كانت عينه التى بها يبصر ، ويده التى عليها يعتمد ، ونفسه التى بشعورها يشعر ، وقلبه الذى بوعيه يعى ؛ فلما أحاطت شهوته بعقله وغلبت مجانته على دينه وجد عن امرأته مصرفاً ، ثم ما زالت الصلة تهن والعقد تحلّ حتى استحال عدواً لها يأخذ عليها مدارج أنفاسها ويحصى عليها لحظات عينها ونبرات صوتها وخطرات نفسها ، وكان أشد ما فتن الرجل فى نفسه وغلبه على عقله وصرفه عن امرأته ثلاثة أشياء :

الأول — الجوارى اللواتى سباهن العرب من مختلف الأقطار والأمصار

الثانى — الديارات[1] التى بثها الروم والسريان وأشباههما فى تفاريق البلاد لصرف العرب أولا عن قوميتهم وأخيراً عن دينهم

الثالث — ذيوع البغاء وأمثال البغاء فى حواضر العراق

وسنختص كلا من هذه الثلاثة بكلمة تكشف عن حقيقته وتبين ما كان له من عمق الأثر وبعد الخطر فى الرجل العربى والمرأة العربية

---

(١) الديارات جمع دير

الجـــوارى

كل ماوراء العدو من نفس ومال فهو فىء الله أفاءه على المسلمين وولّى أمرَه إمامهم، فان شاء تجاوز عنه ومنّ به، وإن شاء بسط عليه يده وعاد به على ذوى الحق فيه

وبحكم ذلك كانت بنات العدو ونسوته من مغانم الحرب فى كل بلد كان للسيف حكم فتحه وامتلاكه

وقد خَلَص للمسلمين من وراء ذلك عدد لا يحده الإدراك من النساء على اختلاف أسنانهن وأجناسهن وأخطارهن، ومنهن الفارسيات والتركيات والأرمنيات والجرجيات والشركسيات والروميات والبربريات والحبشيات، وفيهن بنات الأكاسرة والقياصرة والأساورة والبطارقة من كل قاصرة الطرف ناعمة الكف لم تبتذ لها المِهَن ولم تمتهنها المحن

لم تَلْقَ بُؤسا ولم يضرُر بها عوز ولم تُرَجِّفْ مع الصالى إلى النار

وكان قواد الدولة وولاة الأمصار يجمعون من أولئك أنضرهن وجهاً وأنداهن صوتاً وأمثلهن أدباً ويرسلونهن إلى الخليفة وهو يصطفى منهن من يشاء ويثيب وزراءه وندماءه وخلصاءه بمن يشاء

ولقد ينبئك بما تجمع للخلفاء من الجوارى ماروى ابن الأثير أن المتوكل أُهدِى اليه فى يوم واحد عشرون ألف جارية، ولَهُنّ ولأشباههن بَنَى قصر الْجَعْفَرِى حين ضاقت بهن مقاصير قصر الخلافة فى بغداد

ومن حديث تلك الكثرة أن الرشيد أهديت إليه جارية رائعة الجمال فاحتفل بها احتفالاً أخرج فيه من جواريه المغنيات وساقيات الشراب زهاء ألفى جارية فى أحسن زى وأتم حِلْية، واتصل الخبر بزوجه زبيدة فالتهب صدرها غيظاً وغيرة، وفزعت إلى عُلَيَّةَ بنت المهدى فصنعت لحناً بديعاً وخرجت هى وزبيدة فى زهاء

ألفى جارية عليهن غرائب الثياب وكلُّهن ينشدن بصوت واحد ولحن واحد

منفصــــلٌ عنّى وما قلبىَ عنــــه منفصــــلْ
يا قاطعى اليوم لِمنْ نَوَيْتَ بعدى أنْ تصل

فطرب الرشيد وقام حتى استقبل زبيدة وعُلَيّة وقال لم أرَ كاليوم قَطّ ! يا مَسْرور ! لا تُبْقِينَ فى بيت المال درهما إلا نثرته، فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستة آلاف ألف ! !

وعلى هذا السَّنن من الكثرة سار الخلفاء ومَن دُونهم من ذوى النعمة والثراء. وربما وقعت الفتاة الرُّود فى سَهْم الزاهد فيها الراغب فى المال عنها فيبيعها من المقَيّن وهو يذهب بها إلى جواريه فَيَجْلونَهَا أحسن جلوة ويُزيّنّها أنفس زينة ثم يعرضها للراغبين فى معرِضه من سوق الجوارى أو يستبقيها فى بيته ليُروّيها الشعر ويُخرّجها فى الغناء، وبها وبمثلها تصبح داره مثابة القاصدين من الخلفاء ومَن دونهم ليستَرْوحوا منهن بحسن الحديث وطِيب السماع، وربما رغب العظيم فى اقتناء إحداهن فبذل لصاحبها غاية ما يتمناه

وكان الجوارى أنفس ما يتهادى به ذوو الأخطار، وأفضل ما يثاب به الأدباء والشعراء والسُّمّار، وبذلك انبثثن فى كل موطن وحللن فى كل دار. وإذا آلمك أن يَسبِيَ العرب هذا العدد العديد من النساء فاعلم أنهن اللواتى سبين العرب، وملكن أزمتهم، ووطئن أكتافهم، واقتعدن ظهورهم؛ وضربْن بينهم وبين نسائهم بسور له باب ظاهره الحسن والدلال، وباطنه الذل والوبال. ذلك أنهن أصبحن عقدة تلك الحياة التى لم يعصمها دين ولم يُحِط بها رفق ولم يخالطها وقار، حياة السَّرَف والتَّرف والشهوات واللذات. وكان لهن من وسائل امتلاك قلوب العرب ما يروض كل عَصِى، ويستقيد كل أبى، ويستميل كل نافر، ويستذل كل جامح،

الجمـــــال

وأوَّل تلك الوسائل الجمـال ، وأنت تعلم أن العرب فتحوا بلاداً ليس لبلادهم شيء من صفاء جوها ، ولا رخاء عيشها ، ولا اعتدال إقليمها ، ولا رقة نسيمها ، ولا انسجام نعيمها ، ولا ابتسام زهرها ، ولا ازدهاء شجرها ، فما يمنع نساءها أن يكنَّ على سواء أولئك صفاء وبهاء ، وجمالا واعتدالا ؟ وقد احتوى الجميعَ بلدٌ واحد وغَذَّتهن طبيعة واحدة ، ونَفَحَتهن نسمة واحدة .

وكان من أيسر الأمور أن يُطلب الجمـال المطْلق فى واحدة فإن لم يكن ففى جماعة وهن من كثرة العدد واختلاف النوع على مثال ما رأيت .

التجمـــــل

وربما كان أفتنَ للعقول من الجمـال ، وأسبى منه للنفوس أن تحسن المرأة التجمل فى زِيِّها وزينتها ، وحديثها وإشارتها ، وعَبَثها وَدَعابَتها ودَلِّها وخَلاعتها ، وجلوسها وَمشيتها ؛ فتلك ضروب من الجمـال لا يستوى النساء فى تنسيقها ولا تأليفها . وربما أخرجتها المرأة فى غير مُخْرَجها فأسأمت كل نفس وثقُلت على كل روح ، وقد تصيب بها مواضعها فتـكون أمضى من الجمـال سلاحاً ، وأعظم منه كيداً ؛ والمرأة الفارسية أقدر نساء الشرق القديم على استلاب قلوب الرجال . ولقد شاء القدر أن تصارع المرأة الأجنبية ما فى الرجل العربى من بداوة وحَمِية وعصبية فما زالت تَفَوّق إليها من سهام الحسن المجلوب والجمـال المخضوب ما مزق قوتها وأطفأ جمرتها . ولقد لذ هذا الصراع لبنات الفرس حتى الحرائر اللواتى لم يُكْتَب عليهن رق ولم يُفرَض فيهن حق فـكنَّ يتَزَيَّنَ بزى الجوارى ويُدلَفن إلى سوقهـنَّ ! ! وعليهن الأوشحة والعصائب والأكاليل والتيجان ، وبأيديهن المراوح وقد كتب على

كل ذلك بالذهب والجواهر من غرر الشعر ما تحار فيه القلوب والأبصار .

فما كتبته إحداهن على جبينها بالمسك :

كَتَبَتْ فى جبينهــا بِعَبِيرٍ على قمــر
فى ســطورٍ ثلاثةٍ لعن الله من غدر
وتناولْتُ كَفَّها ثم قلت اسْمَعِى الخبر
كل شىء سوى الخيا نَةِ فى الحب يغتفر

ومما كتبته أخرى على عصابتها :

فما زال يشكو الحب حتى كأنما تنفس فى أحشــائه وتكلما
فأبكى لديه رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما

ومما كتبته أخرى :

الكفر والسحر فى عَيْنى إذا نَظَرَتْ فأغْرُبْ بعينك يا مغرورُ عَنْ عينى
فإن لى سيف لحظ لست أُغمده من صنعة الله لا من صنعة القَين

ومما كتبته واحدة على هلال فى صدرها

افِلتُّ من حور الجنانِ وخلقتُ فتنة من يرانى

وربما ظهرت الجارية فى زى فارس فتقلدت السيف واعتقلت الرمح واتخذت المنطَقَة على خصرها والقلنسوة فوق رأسها

ومما كتبته إحداهن على قلنسوتها :

تأَمل حسن جارية يحار بوصْفِها القمر
مذكَّرةٍ مؤَنثــة فهِىَ أنثى وهِىْ ذكر

وعلى حمائل سيفها :

لم يكفه سيف بعينيه   يقتل من شاء بحديه
حتى تردى مرهفاً صارماً   فكيف أبقى بين سيفيه
فلو تراه لابساً درعه   يخطر فيها بين صفيه
علمت أن السيف من طرفه   أقتل من سيف بكفيه

وأشباه ذلك كثير .

وممن وصف أسلوب الجوارى ، فى العبث بقلوب الرجال فأحسن الوصف أبو عثمان الجاحظ فى حديث مستفيض. ولا بأس أن نسوق اليك ماعف منه وشاكل موضوع الكتاب ، قال :

« إن القينة لا تكاد تناصح فى ودها لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رمته باللحظ وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه ، فإذا أحست بأن سحرها قد تغلب فيه ، وأنه قد تغلغل فى الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها ، وبلت السحاء بريقها ، وأنه شجوها وشجوها فى فكرتها ، وضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحداً على هواه ، ولاتنوى انحرافاً عنه ، ولاتريده لماله بل لنفسه ، ثم جعلت الكتاب فى سلاسل طومار وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زير ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون المغرور أوثق بها ، وألحت فى اقتضاب جوابه ، فإن أجيبت عنه أدعت أنها صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضمير مليحة نَغَماتُها
جاءتْ وقد فرح الفؤا دُ لطول ما استبطأتُها
فَضَحِكْتُ حين رأيتها وبكيت حين قرأتها
عينى رأت ما أنكرت فتبادرت عبراتها
أظلوم نفسى فى يديك حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ بـ :

إنَّ كتاب الحبيب نَدْمَانِى مُحَدِّثِى تارةً وريحانى
أضحكنى فى الكتابِ أوله ثم تمادى به فأبكانى

ثم تجنَّت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، ووصمْتُه النظر إلى صواحبها ، وسقته أنْصَافَ أقْدَاحِها وجَمّشته بِعُضُوض تفاحها ، ومنحته من ريحانها ، وزودته عند انصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من مِرْطِها ، وشظية من مضرابها ، وأهدت اليه فى النيروز تكة وسكرا ، وفى المِهرَجان خاتماً وتفاحاً ، ونقشت على خاتمها رسمهُ ، وأبدت عند العثرة اسمهُ ، وغنته إذا رأته :

نظرُ المُحِبِّ إلى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليه عظيم

ثم أخبرتهُ أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تهنأ بالطعام وجداً عليه ، ولا تمل — إذا غاب — الدموع فيه ، ولا ذكرته إلا تنغصت ، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قِنِّينَةً من دموعها من البكاء ، وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون :

وأهوى من الأسماء ماوافق اسمها وأشْبَهَهُ أو كان منهُ مدانيا

وعند الدعاء به قوله :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

ادب الجوارى

بذلك وأشباهه استمكن الجوارى من شهوات العرب ، وبقى أن يملكن عليهم مجال أرواحهم ، ويأخذن عليهم سبل مشاعرهم ، ويَحْففْنَ بهم من كل نواحيهم والعربى شاعر يهب الشعر قلبه وماله ، طروب يهزه رِزَامُ الناقة ، ويبكيه نوح الحمام ، وبلاد فارس بما حَبَاها الله من حسن وإشراق مشرق شمس الشعر ، ومهبط وحى الغناء ؛ وليس ينقُصُ الفتاةَ الفارسيةَ إلا أن تروى الشعر العربى حتى تكون شاعرة ساحرة ، ومغنِّيَة مضنية ، وذلك ما أقبل عليه الجوارى ومؤدبوهن إقبالا لا حد له .

وكان المقَيِّنون يحتازون الجارية ، فان وجدوا منها لباقة فى اللفظ أو رخامة فى الصوت دفعوا بها إلى المؤدبين والمغنين فيُرَوونها الشعر ويلقنونها الغناء ، فإن تم لها هذان نبه شأنها ، وتنافس ذوو السلطان فى ابتغائها والمغالاة بها ، ولصاحبها من وراء ذلك ربح غير معدود ، وحظ غير محدود .

وكانوا قبل عهد بنى العباس لا يعلِّمُون الغناء إلا الصُّفرَ والسود ، فلما ازدهر العهد العباسى وظهر إبراهيم الموصلى أخذ يختار الحسان ويعلمهن الغناء ، فكانت داره أشبه ما تكون بمعهد موسيقى يتخرج فيه حسان المغنيات ، فإذا تم ذلك لهن أخذ يبيعهن من الخليفة أو الوزير بما يكفل له الغنَى والجاه والحظ العظيم .

وفيما فعله إبراهيم يقول أبو عيينة :

لا جزى الله الموصلىَّ أبا إسْحَاق عنَّا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرْسَلا بوحى من الشيطان أغْلَى به علينا القيانا
من غِناء كأنَّه سكرات الحُبِّ يُصْبِى القلوب والآذانا

ولم يمض غير قليل حتى ظهر فتيات الفرس فى ميدان الشعر العربى والغناء العربى يدافعن الشعراء والمغنين بالمناكب ، وأخذن يُفرغن على الشعر العربى حلة مذهبة

النسج ، واضحة النهج ، صفيّة الديباجة ، خفيفة الروح ؛ وفى مذاهبهم سار المُرقّون من الشُّعَراء ، أمثال إبراهيم بن العباس ، وعلى بن الجهم ، ومهيار الديلمى ، ومن ذهب فى مذاهبهم ودرج على آثارهم .

وكان هذا العصر عصر مطارحة للشعر بين الرجال والجوارى ، يبتدىء الشاعر بيت من الشعر فتعارضه الجارية بمثله على وزنه وَرَوِيّه وفى بقية معناه ، وأكثر ما تكون الغلبة للنساء ، فقد كُنَّ أسرع بديهة وأرق طبعاً . ومن حديث ذلك أن أعرابياً ذهب إلى عنان جارية الناطفى وصاحبة أبى نواس فقال : بلغنى أنك تقولين الشعر فقولى بيتاً . وكان السلولى الشاعر عندها فقالت قل أنت يا عم !! فقال السلولى :

لقد جَدَّ الفراق وعِيل صبرى   عشيّة عِيرُهم للبين زُمّت

فقال الأعرابى :

نظرت إلى أواخرها ضُحَيّا   وقد بانت وأرضَ الشام أمّت

فقالت عنان :

كتمتُ هواكُمُ فى الصدر منى   على أن الدموع علىَّ نمّت

فقال الأعرابى أنتِ والله أشعرنا ولولا أنك بحرمة رجل لقبّلتك . ولكنى أُقَبِّل البساط

ومن بديع المطارحة أن على بن الجهم ألقى على فضل الشاعرة بحضرة المتوكل بيتاً غريب القافية ليعجزَها فقال :

لاذ بها يَشتكى إليها   فلم يجد عندها ملاذا

فما لبثت أن قالت :

ولم يزل ضارعاً إليها   تهطل أجفانه رَذَاذا

فعاتبوه فزاد عشقاً   فمات وجداً فكان ماذا

وسنسوق إليك فى حديث الشواعر والمغنيات من ذلك شيئاً كثيراً .

ومن فضل الشواعر من الجوارى على نظرائهن من الرجال أنهن كن يجمعن بين الشعر والغناء ، فكانت الجارية تقول الشعر ثم توقعه ثم تتغنى به فتخرجه أحسن مخرج وتؤثر به أنفذ تأثير .

بذل

وممن هؤلاء بذل المغنية جارية جعفر بن موسى الهادى ، وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة ، وكانت فيما ذكروا أروى خلق الله للغناء وأخبار المغنين ، ومن قولها إنها تروى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب جمعت فيه اثنى عشر ألف صوت ويقال إنها كتبته فى يوم وليلة ! وهو قول ظاهر الغلو على أنه دليل على ما بلغته فى فنها من سمو وبعد غاية .

وكان كل مغن يصف نفسه بالسبق فى فنه والتفرد فى إحسانه إلا بين يدى بذل ، فهناك يتضاءل فخره ويلتبس سبيله حين تأخذ عليه نواحى الفن فلا يجد عنها مصرفاً ولا محيداً .

وكان إبراهيم بن المهدى سيد أهل الغناء يعظمها ويتوافى لها ثم تغير بعد ذلك استغناء بنفسه عنها فصارت إليه فدعا بعود فغنت فى طريقة واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً ، ووضعت العود وانصرفت فلم تدخل داره حتى طال عناؤه فيها وطلابه لها وتوسله إليها .

ومن حديثهم أن شيخ المغنين إسحاق بن إبراهيم الموصلى خالف بذلا فى نسبة صوت غنته فى حضرة المأمون فأمسكت عنه ساعة ثم غنت ثلاثة أصوات وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه ، فقالت للمأمون يا أمير المؤمنين هى والله لأبيه أخذتها من فيه ! فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ؟ ! فاشتد ذلك على إسحاق حتى رئى فى وجهه .

وكانت بذل لجعفر بن موسى الهادى فوصفت لمحمد الأمين فى عهد خلافته فبعث إلى جعفر يسأله أن يُزِيره بَذْلاً فلم يفعل ، فوافاه الأمين فى منزله فسمع من الغناء مالم يسمع مثله قط ، وأحب الخليفة أن تكون له بذل فاستامها من ابن عمه فقال جعفر يا سيدى مثلى لا يبيع جارية ، قال هبها لى ، قال هى مدبّرة ، فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بذل إلى حرّاقته وانصرف بها ، فلما أفاق جعفر سأل عنها فأخبر الخبر فسكت ، فبعث إليه الأمين من غده فجاء وبذل جالسة فلم يقل شيئاً ، فلما أراد أن ينصرف قال الأمين : أوقروا حراقة[1] ابن عمى دراهم . فأوقرت فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم ، ووهب لها الأمين من الجواهر مالم يملك أحد مثله وبعد مقتله رغب إليها وجوه القواد والكتاب وبنى هاشم فى التزويج ، فأبت وأقامت فى موطن الإجلال من الخلفاء والأمراء وصدور الدولة حتى ماتت .

عنان

وهى أحسن شعراء دهرها بديهة وأسبقهم نادرة وأعذبهم حديثاً وكل ذلك فى رقة وجمال قلّ أن يكونا لغيرها ، وهى من مولدات اليمامة وبها كانت نشأتها ثم اشتراها الناطفى أحد المُقيِّنين فى بغداد ، فكان بيته من أجلها مندَى العظماء والشعراء والعلماء . وكان أمراء الشعر يأتونها فيلقون عليها البيت أو البيتين فتجيزهما بمالم يخطر لهم على بال .

ومن حديث مروان بن أبى حفصة شاعر المهدى والرشيد أن الناطفى لقيه فدعاه إلى بيته فانطلق معه ، ودخل إلى عنان قبله ، فقال لها جئتك بأشعر الناس مروان ابن أبى حفصة ، وكانت تشكو علة ، فقالت إنى عن مروان فى شُغل ، فأهوى إليها بالسوط ، وقال لمروان ادخل فدخل وهى تبكى ورأى الدمع ينحدر من عينها فقال :

بكت عنان فجرى دمعها ... كالدر إذ ينسلّ من خيطه

---

(١) الحراقة سفينة فيها مرامي نيران يرمي بها العدو .

فقالت مسرعة

فليت من يضربها ظالماً تجفّ يمناه على سوطه

فقال مروان أعتق ما أملك إن كان فى الجن والإنس أشعر منها

وقيل إن الرشيد جلس ليلة ومعه سُمّاره، فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير التى يقول فيها:

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال مَعينا

فطرب لها الرشيد طرباً شديداً، وقال لجلسائه هل منكم من يجيز هذه الأبيات، وله هذه البدرة — وبين يديه بَدْرَة من دنانير[1] — فلم يصنعوا شيئاً، فقال خادم من خاصة خدمه، أنا بها لك يا أمير المؤمنين، قال شأنك، فاحتمل البدرة، ثم أتى الناطفى فقال استأذن على عنان، فدخل وأخبرها الخبر، فقالت ويحك وما الأبيات؟ فأنشدها إياها، فقالت اكتب:

هيجت بالقول قد الذى قلته داء بقلبى ما يزال كمينـا

قد أينعت ثمراته فى روضها وسُقين من ماء الهوى فرَوينا

كذب الذين تَقَوّلوا يا سيدى إن القلوب إذا هوَين هَوِينا

فدفع إليها البدرة ورجع إلى هرون، فقال له ويحك من قالها، قال: عنان جارية الناطفى فقال حللت الخلافة من عنقى إن باتت إلا عندى فاشتراها منه بثلاثين ألفا

وقال أحمد بن معاوية: تصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدى أن أجد من يجيزه، فلم أجد، فقال صديق لى عليك بعنان جارية الناطفى فأتيتها فأنشدتها البيت وهو

وما زال يشكو الحب حتى رأيته تنفس من أحشائه وتكلما

---

(١) البدرة كيس فيه سبعة آلاف دينار

فلم تلبث أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ودخل عليها أبان بن عبد الحميد وأبو العباس بن رستم وهى فى خيش فقال لها أبان : العيش فى الصيف خَيْشٌ . فقالت مسرعة : إذ لا قتالٌ وجيش فأنشدها أبو العباس بن رستم قول جرير :

ظـللْت أوارى صاحِبيَّ صبابتى وقد عِلقَتْنى من هواك عَلُوق

فقالت مسرعة :

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت بأسراره عين عليه نَطُوق

ولعنان مع أبى نواس فصول طوال ، كان يتعرض لها بما يظنه أن يحرجها فترد عليه بما يفحمه ويقهره . وقد صرفنا القول عما تجاذباه من الشعر لأن أكثره مما يند على السمع لهجره ومجانته

ومن حديث الجد بينهما أنه دخل عليها وهى جالسة تبكى لما أصابها من ضرب الناطفى ، فأومأ هذا إلى أبى نواس أن يكلمها فقال أبو نواس

عنانُ لو جُدْتِ لى ! فأنّىَ من عمرىَ فى « آمَن الرسول بما »[1]

فقالت :

فإن تمادى ولا تماديت فى قطعك حبلى أكن كمَن ختما

فقال أبو نواس :

علقْتُ مَنْ لو أتى على أنفس المـــاضينَ والغـابرين ما ندما

فقالت :

لو نظرت عينها إلى حجر ولَّد فيه فتورها سقما

---

(١) يقول أنه يتمنى جودها بالرضا لأنه فى آخر مرحلة من الحياة كما أن هذه لآية الكريمة « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه . . . » فى آخر صورة البقرة ، فقالت في بيتها الثانى تتمة لكلامه أنها اذا تمادت ختم عمره كما تختم هذه الآية

بَصْبَص

جارية أوتيت كثيراً من ملاحة الوجه وسحر الغناء. تلقت صناعتها عن الطبقة الأولى من المغنين. وكانت فى رق يحي بن نفيس، وكان يحي صاحب قيان، يرويهن الشعر ويعلمهن الغناء، ومن أجل ذلك كانت داره بالمدينة مهبطاً للوجوه والأشراف، ووصفت للمهدى وهو ولى عهد فاشتراها بسبعة عشر ألف دينار، وقيل إنه استولدها ابنته علية. وكان عبد الله بن مصعب حفيد ابن الزبير يأتيها بالمدينة فى فتيان قريش فيستمع منها، وكان من أشد الناس إعجاباً بها، وفيها يقول حين قدم المنصور منصرفاً من الحج ومر بالمدينة:

أراحلٌ أنت أبا جعفرٍ — من قبل أن تسمع من بَصْبَصَا؟
هيهات أن تسمع منها. إذا — جاوزت العيس بك الاعوَصا[1]
فخـــذ عليها مجلسى لذة — ومجلساً من قبل أن تشخصا
أحلف بالله يمينا ومن — يحلف بالله فقد أخلصـا
لو أنهـــا تدعو إلى بيعة — بايعتها ثم شققت العصا

وما كان أجرأ ذلك الفتى القرشىّ على المنصور وهو الذى لا تأخذه فى سفك الدماء ملامة ولا يثنيه عنها حرج، ولقد بلغ المنصور هذا القول فاشتد غضبه، ودعا الشاعر وقال له: أما إنكم يا آل الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا[2] حتى صرت أنت آخر الحمق، تبايع المغنيات، فدونكم يا آل الزبير هذا المرتع الوخيم.

---

(١) الأعوص منزلة فى طريق المدينة (٢) يشير المنصور الى حوادث انقاد فيها رجال هذا البيت الى رأى النساء وأولها انقياد الزبير بن العوام الى رأي سيدة النساء فاطمة الزهراء حين غاضبت أبا بكر وجانبته فامتنع الزبير عن بيتعه مرضاة لها حتي توفيت. ومنها انقياد عبد الله بن الزبير الى رأي أمه أسماء حين دفعته الى المضى فى قتال الحجاج حتى الموت وكان مصعب بن الزبير لا يبرم أمراً الا اذا استشار احدى زوجتيه عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين

وفى بصبص يقول هرون بن محمد بن عبد الملك :

بصبص أنت الشمس مزدانةً فإن تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهـــم ما هكذا فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود فى مشهد وعاونت يمنى يديها الشمال
غنت غنـــاء يستفز الفتى حذقاً وزان الحذق منها الدلال

ومن شغف بهذه الجارية من أبناء الأشراف ، محمد بن عيسى الجعفرى ، وقد هام بها طويلا ثم لما عز عليه طلابها سلى نفسه بعض السلو عنها ، ومن حديثه أنه قال لصديق له لقد شغلتنى هذه الجارية عن صنعتى وكل أمرى ، وقد وجدت مسّ السلو عنها ، فاذهب بنا إليها حتى أكاشفها ذلك وأستريح فأتياها ، فلما غنتهما قال لها محمد بن عيسى : أتغنين

وكنت أحبكم فسلوت عنكم عليكم فى دياركم السلام

فقالت : لا . ولكنى أغنى

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العفاء

فاستحيا محمد ، وبدّل بالسلو كلفا ووجداً ، وأطرق ساعة ثم قال لها : أتغنين

وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذى أتنصل

قالت : نعم . وأغنى أحسن منه

فإن تقبلوا بالود نقبل بمثله وننزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين ، وما شعر بهما أحد

وحضر أبو السائب المخزومى مجلساً فيه بصبص فغنت

قلبى حبيس عليك موقوف والعين عبرَى والدمع مذروف
والنفس فى حسرة بغصتها قد شف أرجاءها التساويف

إن كنت بالحسن قد وصفت لنا   فإننى بالهوى لموصوف
يا حسرتا حسرة أموت بها   إن لم يكن لى إليك معروف

فطرب أبو السائب ونعر، وقال لا عرف الله من لم يعرف لك معروفك، ثم أخذ قناعها من رأسها ووضعه على رأسه وجعل يبكى ويلطم ويقول لها بأبى أنت، والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضل من الشهد لما تُوَلِّينَاه من السرور، وجعل يصيح: واغوثاه! يا لله ما يلقى العاشقون!

وحدّث عثمان بن محمد الليثى قال: كنت يوماً فى منزل ابن نفيس فخرجت إلينا جاريته بصبص، وكان فى القوم فتى يحبها، فسألته حاجة، فقام ليأتيها بها، فنسى أن يلبس نعله، ومضى حافياً، فقالت له يا فلان نسيت نعلك، فرجع فلبسها وقال. أنا والله كما قال الأول

وحبك يُنسى عن الشىء فى يدى   ويشغلنى عن كل شىء أحاوله

فأجابته فقالت

وبى مثل ما تشكوه منى وإننى   لأشفق من حب لذاك تزايله

دنانير

وهو اسم لجاريتين

أما الأولى فجارية، محمد بن كناسة، وكان ابن كناسة شاعراً فى الطبقة الثانية من شعراء العهد العباسى، وكانت جاريته فى مثل طبقته منهم، ومن حديثها ما رواه المرزبانى عن بعض شعراء الكوفة، قال: قال: لى محمد بن كناسة اشتهت دنانير أن تنظر إلى الحيرة فهل لك أن تساعدنا؟ وكان الزمان ربيعا، فقلت نعم، فقال، تَقَدَّمْنا لنلحق بك، فقصدت الخورنق، وجلست فى بعض المواضع المعشبة،

وإذا به قد أقبل على بغلة ، ومعه دنانير على حمار ، فنزلا وجلسنا ، وقد سترت بعض وجهها عنى ، فقلت أداعبها — وكان محمد يأنس بى ويسكن إلى — إنما تسترين وجهك عن شيخ ، فقالت : طاح العين ، فضحكنا ثم أخذنا ننظر إلى رياض الحيرة وبقاعها ونتذكر ما مضى بها من الزمان ونستحسن حمرة الشقائق على ائتلاف تلك الأنوار والألوان ، فأخذ محمد عوداً وكتب وعلى الأرض :

الآن حين تزيّن القُطر ... أنجادُه ووهاده العفُر

فقلت أحسنت وكتبت :

بريّة فى البحر نابتة ... يُجْبَى إليها البر والبحر

فكَتَبَتْ :

وسرى الفرات على مياسرها ... وجرى على أيمانها النهر

وبدا الخورنق فى مطالعها ... فرداً يلوح كأنه الفجر

كانت منازل للملوك ولم ... يُعمل بها لمملَّك قبر

أقول ومن أشرف الشعر وأجزله وأنزهه قولها تخاطب أبا الشعثاء ، وكان رجلاً عفيفاً مزاحاً ، وكان يدخل إلى ابن كناسة يسمع غناءها ويعرض لها بأنه يهواها

لأبى الشعثاء حب كامن ... ليس فيه تُهَمَةٌ للمُتَّهِم

يا فؤادى فازدجر عنه ويا ... عبث الحب به فاقعد وقم

زارنى منه كلام صائب ... ووسيلات المحبين الكَلِم

صائد تأمنه غزلانه ... مثل ما تأمن غزلان الحَرَم

صَلِّ إن أحببت أن تُعْطَى المنى ... يا أبا الشعثاء لله وصم

ثم ميعادك يوم الحشر فى ... جنة الخلد إن الله رحم

وأما الثانية فجارية جعفر بن يحي ، وكانت أنبه من الأولى ذكراً وأبدع شعراً وأتم ظرفاً وكمالا ، وأزهى حسناً وجمالا ، وأكثر رواية واطلاعاً ، وأدق لحناً وإيقاعاً ، وكانت لرجل من أهل المدينة وهو الذى خرّجها فى الأدب والغناء ، فلما رآها جعفر بن يحي وقعت بقلبه فاشتراها ، وكان الرشيد يسير إلى دار جعفر ليسمعها ويتحدث إليها حتى ألفها واشتد إعجابه بها فكان لما يشعر من شغفه بها ونزوعه إليها لا يطيق الصبر عن المسير إليها ، وكان بره بها وألطافه لها مما ضرب به الأمثال ، ومن ذلك أنه وهب لها ذات ليلة عقداً بثلاثين ألف دينار ، وعلمت زبيدة كل ذلك فأحزنها ودفعها إلى شكوى الرشيد إلى عمومته فصاروا إليه جميعاً فعاتبوه فقال ما لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها وإنما أربى فى غنائها فاسمعوها ، فإن استحقت أن يُؤْلَف غناؤها وإلا فقولوا ماشئتم ، فنقلهم إلى يحي حتى سمعوها عنده فأولوه جانب العذر وعادوا إلى زبيده فأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها فقبلت ذلك وأهدت الرشيد عشر جوار لعله يسلوا بهن عنها — ومنهن مارية أم المعتصم ومرَاحل أم المأمون ، وماردة أم صالح .

ومما حدث به إبراهيم الموصلى : قال لى يحي بن خالد إن ابنتك دنانير قد عملت صوتاً اختارته وأعجبَت به فقلت لها : لا يشتدَّ إعجابُك حتى تعرضيه على شيخك فإن رضيه فارضَيْهِ لنفسك ، وإن كرهه فاكرهيه ، فامض حتى تعرضيه عليك ، فقلت له أيها الوزير فكيف إعجابك ، فإنك والله ثاقب الفطنة صحيح التميز قال أكره أن أقول لك أعجبنى فيكون عندك غير معجب إذ كنت عندى رئيس صناعتك تعرف منها مالا أعرف وتقف من لطائفها على مالا أقف ، وأكره أن أقول لك لا يعجبنى وقد بلغ من قلبى مبلغاً محموداً ، وإنما يتم السرور به إذا صادف ذلك منك استجادة وتصويباً ، قال : فمضيت إليها ، وقد كان تقدم إلى

خدمه يعلمهم بأنه سيرسل بى إلى داره ، فأدخلْت ، وإذا بالستارة قد نصبت ، فسلمت على الجارية من وراء الستارة فردت السلام وقالت : يا أبت أعرِضُ عليك صوتاً قد تقدم ولاشك إليك خبره ، وقد سمعتُ الوزير يقول إن الناس يُفتنون بغنائهم فيعجبهم منه مالا يعجب غيرهم كما يفتنون بأولادهم فيحسن فى أعينهم منهم ما ليس يحسن ، وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك ، فقلت : هاتِ ، فأخذت عودها وتغنت تقول :

نفسى أكنتُ عليك مدعياً ... أم حين أزمع بينهم خُنْتِ ؟

إن كنت مُولَعة بذكرهم ... فعلى فراقهم ألا مُتِّ ؟

قال فأعجبنى والله غاية العجب ، واستخفنى الطرب حتى قلت لها أعيديه فأعادته وأنا أطلب لها موضعاً أصلحه ، وأُغَيِّره عليها ، لتأخذه عنى ، فلا والله ماقدرت ، ثم قلت لها أعيديه الثالثة ، فأعادته فإذا هو كالذهب المُصَفَّى ، فقلت أحسنت يابنية ، وأصبت ، وقد قطعت بحسن إحسانك ، وجودة اصابتك ، ثم خرج ، فلقيه يحيى ، فقال : كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير قال : أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة ، ولقد قلت لها أعيديه . وأعادته علىّ مرات ، كل ذلك أريد إعناتها لأجتلب لنفسى مدخلا يؤخذ عنى ، وينسب إلىّ فلا والله ماوجدته .

وإذا شئت أن تعرف مالهذه الجارية من بعد الشأو فى الشعر ، ولطف المدخل فى الغناء ، فإليك قول جحظة البرمكى : « كنت أنا وابن جامع نعانى دنانير جارية البرامكة فكثيراً ما كانت تغلبنا » وكلا هذين الرجلين قطب من أقطاب الغناء ، فى الدولة العباسية ، وعلم من أعلامه .

ومن حديث وفائها لمواليها ، أن الرشيد دعا بها بعد أن أوقع نكبته بالبرامكة ، فأمرها أن تغنى ، فقالت يا أمير المؤمنين ، إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً ،

فغضب وأمر بصفعها فصفعت ، وأقيمت واقفة ، وأعطيت العود ، فأخذته وهى تبكى أحر بكاء واندفعت فغنت :

يادار سلمى بنازح السَّنَدَ — من الثنايا ومسقط اللِّبَد

لما رأيت الديار قد درَسَت — أيقنت أن النعيم لم يَعُد

فرق لها الرشيد وأمر بإطلاقها ، فانصرفت .

ولدنانير كتاب فى الغناء يعده أهل هذا الفن أصلا من أصوله ، ومرجعاً من مراجعه .

عَرِيب

وهى فتنة هذا العصر ، وعقدة سحره ، وملتقى بدائعه ، ومجتمع نوادره . نشأت فى دار جعفر بن يحيى البرمكى ، وقيل إنها ابنته من إحدى جواريه ، ثم جحد البرامكة نسبتها ، وبيعت فيمن بيع من جوارى جعفر بعد نكبته ، ثم احتازها ثمانية من خلفاء هذه الدولة ، أولهم الأمين ، وآخرهم المعتز ، وما منهم إلا من يعدها زينة قصره ، وآية عصره ، وإليها اجتمعت محاسن هذا الجيل ، وفيها انتظمت مواهبهم ، من حسن خط ، وحلاوة شعر ، وجمال صورة ، وغاية ظرف ، وجودة ضرب ، ودقة غناء ، وفيها يقول إسحاق الموصلى « ما رأيت امرأة أضرب من عَرِيب ، ولا أحسن صنعة ، ولا أجمل وجها ، ولا أخف روحاً ، ولا أحسن خطاباً ، ولا أسرع جواباً ، ولا ألعب بالشِّطْرَنج والنرد ، ولا أجمع لخصلة حسنة ؛ لم أر مثلها فى امرأة غيرها » وإسحاق إمام أئمة هذا الفن ، وشهادته لها مقطع الرأى وفصل الخطاب ، وقد ذكر هذه الشهادة حماد بن اسحاق لقاضى القضاة يحيى بن أكثم فقال : صدق أبو محمد ، هى كذلك ، قال : أسمعتها ، قال نعم هناك « يعنى فى دار المأمون » قال : أفكانت كما ذكر أبو محمد فى الحذق ، قال يحيى : هذه مسألة الجواب فيها على أبيك ، هو أعلم بها منى .

وكان المأمون مشغوفاً بحبها ، وقد ذكر صاحب نهاية الأرب أنه خلع فى حبها عذار الخلافة حتى قبل مرة قدمها ، وقد نُسِبَت هى إليه فقيل لها عريب المأمونية ، وكان إسحاق قد وصفها له قبل أن تصير إليه فأمره أن يشتريها بمائة ألف درهم ، وأعطى إسحاق فى وساطة شرائها مائة ألف أخرى . وقال إبراهيم ابن رباح — كاتب ديوان المأمون — فلما أردت أن أثبت هذا القدر من المال كتبت إن المائة الألف خرجت فى ثمن جوهرة ، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلالها ، فجاء الفضل بن مروان — الوزير — إلى المأمون ، وقد رأى ذلك وأنكره ، وسألنى عنه فقلت نعم ، هو ما رأيت ، فسأل المأمون عن ذلك فقال : وهبت لدلال وصائغ مائة ألف درهم ! وغلَّظ القصة ، فأنكرها المأمون ، ودعانى ، فدنوت ، وأخبرته أن المال الذى خرج فى ثمن عريب ، وصلة إسحاق وقلت أيما أصوب يا أمير المؤمنين مافعلت ، أم أثبت فى الديوان أنها خرجت ثمن مغنية وصلة مغن ؟ فضحك المأمون وقال : الذى فعلت أصوب ، ثم قال للفضل بن مروان يا نبطىّ لا تعترض على كاتبى هذا فى شىء .

وما أظن أن امرأة بلغت فى هذا العصر من نباهة الشأن وبعد الشأو مابلغته عريب ، بل لا أظن مغنية فى أى عصر من العصور نالت من الحظوة والجاه بين صدور الدولة وأعوان الخليفة مابلغته هذه المرأة الممتازة بين النساء .

ومن حديث إبراهيم بن محمد اليزيدى أحد أصحاب المأمون قال : كنت مع المأمون فى بلد من بلاد الروم فبينا أنا فى ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح ، وإلى جانبى قبة ، فبرقت برقة ، وإذا فى القبة عريب ، قالت : ابراهيم بن اليزيدى ؟ قلت لبيك ! قالت قل فى هذا البرق أبياتا ملاحاً لأغنى فيها ، فقلت :

ماذا بقلبى من أليم الخَفْقِ   إذا رأيت لمعان البرق

من قبل الأردنِّ أو دمشق   لأن من أهوى بذاك الأفق

خالفتـــه وهو أعز الخلق علىَّ والزور خـــلاف الحقِّ
ذاك الذى يملك مـــنى رقى ولست أبغى ما حييت عتق

قال فتنفَّسَتْ نفساً ظننت أنه قطع حيازيمها ، فقلت ويحك ! على من هذا ؟ فضحكت ، ثم قالت : على الوطن ، فقلت هيهات ! ليس هذا كلهُ للوطن ، فقالت ويلك ! أفتراك ظننت أنك تستفزنى ! والله ، لقد نظرتُ نظرة مريبة فى مجلسى ، فادعاها أكثر من ثلاثين رئيساً ، والله ما علم أحد منهم لمن كانت إلى هذا اليوم .

وكان بينها وبين إبراهيم بن المدبر أحد ولاة الدولة وكتابها وسراتها صحبة صادقة وود مكين ، لم يجاوز ود الأديب للأديب ، ثم حدث عتب فاحتجبت عنهُ ، وجد به الشوق والحنين إليها ، وقال فى ذلك — وهو مما يُتغنى به :—

إلى الله أشكو وحشتى وتفجعى وبعد المدى بينى وبين عريب
مضى دونها شهران لم أخلُ منهما بعيش ولا من قربها بنصيب
فـكنت غريباً بين أهلى وجيرتى ولست إذا أبصرتهـا بغريب
وإن حبيباً لم يرِ النـاس مثـله حقيق بأن يفدَى بكل حبيب

وحَدَث أن اجتمع إبراهيم بن المدبر وعبد الله بن حمدان وابن منارة والقاسم فى بستان بالمُطَيْرة فى يوم غيم يقطر أحسن قطر ، ويُحْتَلَى فيه أطيب العيش ، قال عبد الله بن حمدان فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد ، فوثب إبراهيم ابن المدبر من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقبـل الأرض بين يديها ، فجاءت وجلست ، وأقبلت عليه متبسمة ، وقالت : إنما حننتُ إلى مَن هنا لا إليك ، فاعتذر لهـا . وقال :

بأبى من حقق الظن به فأتانا زائراً مبتـــديا
كان كالغيث تراخى مدة وأتى بعـــد قنوط مُرْويا

طاب يومان لنا فى قربه ... بعد شهرين لهجر مضيا
فأقرَّ الله عينى وشفى ... سَقَماً كان لجسمى مبليا

وقال فيها :

ألا ياعريب وقيت الردى ... وجنَّبك الله صرف الزمن
فإنك أصبحت زين النساء ... وواحدة الناس فى كل فن
فقربك يدنى لذيذ الحياة ... وبعدك ينفى لذيذ الوسن
فنعم الأنيس ونعم الجليس ... ونعم السمير ونعم السكن

ثم قال فيها وفى جاريتيها بدعة وتحفة

إن عريباً خلقت وحدها ... فى كل ما يحسن من أمرها
ونعمة الله فى خلقه ... يقصر العالَمُ فى شكرها
أشهدنى جاريتاها على ... أنهما حسنتا دهرها
فبدعة تبدع فى شجوها ... وتحفة تتحف فى زمرها
يا رب أمتعها بما خُوِّلت ... وامدد لنا يا رب فى عمرها

وكانت عريبُ على موعد من زيارة إبراهيم ، فلما كانت فى صباح يوم الموعد لم تجد نشاطاً للزيارة ، فأرسلت إليهِ بدعة وتحفة تحملان منها هذه الرسالة :

بنفسى أنت وسمعى وبصرى — وقَلَّ ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً طيَّب الله عيشك — قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، وكأنه أنت فى رقة شمائلك ، وطيب محضرك ومخبرك ، لا فقدت ذلك منك ، ولم يصادف حسنُه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً لأمور صدتنى عن ذلك ، أكره تنغيص ما أشتهيه لك من السرور بشرحها ، وقد بعثت إليك ببدعة وتحفة ليؤنساك وتُسَر بهما ، سرك الله وسرنى بك .

فكتب إليها :

كيف السرور وأنت نازحةٌ عنى وكيف يسوغ لى الطرب

إن غبت غاب العيش وانقطعت أسبابه وألحّت الكُرَبَ

وابتدأ الجواب ، فلم تلبث أن جاءت على حمار فبادر إليها وتلقاها حافياً حتى جاء بها إلى صدر المجلس ، يطأ الحمارُ بساطه وما عليه حتى أخذ بركابها فأجلسها فى مجلسه وجلس بين يديها ، ثم قال :

ألا رُبَّ يوم قصّر الله طوله بقرب عريب ، حبذا هو من قرب

بها تحسن الدنيا وينعم عيشها وتجتمع السراء للعين والقلب

وكان يُطيف الخاطر بعريب فتقوله شعراً ثم تصوغه لحناً ثم توَقعه غناء يستطير قلب الحكيم ويستخف وقار الحليم ، ومن شعرها ولحنها وغنائها قولها :

لو كان يقدر أن يبثّك ما به لرأيت أحسن عاتب يتعتب

حجبوه عن بصرى فمثّل شخصه فى القلب فهو محجب لا يحجب

ومنه :

أما الحبيب فقد مضى بالرغم منى لا الرضا

أخطأت فى تركى لمن لم أُلْفَ عنه مُعْرِضا

ومنه :

إذا كنت تحذر ما تحذرُ وتزعم أنك لا تجسر

فمالى أقيم على صبوتى ويوم لقائك لا يقدر

ومن بديع إجازتها للشِّعر وتضمينها إياه ، ما حدّث على ابن المنجم ، قال : دخلت يوماً على عريب مسلّماً عليها ، فلما جلست هطلت السماء بمطر عظيم ، فقالت أقم عندى اليوم حتى أغنيك أنا وجوارىّ وابعث إلى من أحببت من

إخوانك ، فأمرتُ بدوابى فردَّت ، وجلسنا نتحدث ، فسألتنى عن خبرنا بالأمس فى مجلس الخليفة «الواثق» ومَن كان يغنينا وأى شىء استحسناه من الغناء ، فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لحناً صنعه بنان (المغنى) من الماخورى «وكان الواثق من أعلم الناس باللحن والإيقاع» فقالت وما هو ؟ فقلت :

تَجَافى ثم تنطبق ... جفون حشوُها الأرق
وذى كلف بكى جزعاً ... وسَفْرُ القوم منطلق
به قلق يُمَلْمِلُهُ ... وكان وما به قَلَقُ
جوانحه على خطر ... بنار الشوق تحترق

فوجهت عريب رسولاً إلى بنان فحضر وقد بلَّته السماء ، فأمرت بخلع فاخرة فخلعت عليه ، وقُدم له طعام فأكل ، وجلس يشرب معنا ، فسألتهُ عن الصوت فغناها إياه ، فأخذت دواة ورقعة وكتبت :

أجاب الوابل الغَدِق ... وصاح النرجس الغَرِق
وقد غنى بنان لنا ... «جفونٌ حشوها الأرق»
فهاك الكأسَ مترعة ... كأن ختامها حَدَق

قال على بن المنجم : فما شربنا يومنا إلا على هذه الأبيات

ومن عجيب وفاء عريب لفنها ونسيان ذاتها فى سبيله ما حكاه صالح بن على ابن الرشيد قال : تمارى خالى أبو على والمأمون فى صوت ، فقال المأمون أين عريب ؟ فجاءت وهى محمومة ، فسألها عن الصوت فقالت فيه بعلمها ، فقال لها غنيه ، فولت لتجىء بالعود ، فقال غنيه بلا عود ، فأعتمدت من الحمّى على الحائط وغنت ، وأقبلت عقرب فرأيتها وقد لسبَت يدها مرتين أو ثلاثاً فما نحت يدها ولا سكنت حتى فرغت من الصوت ، ثم سقطت وقد غشى عليها

ومن بديع منطقها ما حدثوا أن المأمون عتب عليها فهجرها أياماً ، ثم اعتلت فعادها ، فقال كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقصة ثم قال : أترى لو كان هذا من كلام النَّظَّام ألم يكن كثيراً ؟

ولما قبل المأمون قدمها قالت : والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرّفها الله من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها ، ولكن لله عليّ ألّا أغسلها لغير وضوء أو طهر إلا بماء الورد ما عشت . فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت

فضـــل

وعزيزٌ علينا أن نُجمِلَ القولَ عن فضلٍ فى صفحةٍ أو صفحتين فإن فى ذلك الإجمالِ مظلمةً للأدب العربى لا يبلغُها العذرُ

نشأت فضلُ بالبصرة فى دار شاعر من بنى عبد القيس ، وبالبصرة تأدبت وتخرجت ثم اشتُرِيتْ وأُهدِيت إلى المتوكل ، وكانت فى الغاية العلياءِ من قسامة الوجه ، وحلاوة الطبع ، وحسن البديهة ، وظَرفِ الحديث ، أما الشعر فهى فيه نسيجُ وحدِها ، بل إنك لا تجدُ لها فى شواعرِ النساءِ ضريباً منذ جرَى على ألسنتِهن الشعر ، وكان عصرُ المتوكلِ عَصرَ الشعر الساحر الذى ينبعث عن الطبع الرقيق ، وقد اجتمع فيه من الشعراء المرقِّقين ذوى الديباجة المُذهَبة والأسلوبِ الغنائى البديع ما لم يجتمعْ فى عصرٍ من العُصُور ، ففيه ظهر البحترىُّ وسعيدُ بن حُمَيد وعلىّ بن الجهم وإبراهيمُ بنُ العباس وابنُ الرومىِّ وأشباهُهم ، وفيه ظهرت فضلُ فما قصّرت عن هؤلاء جميعاً ، وكثيراً ما تقدمتهم فى الشعر الغنائىّ الذى يعتمد على فرطِ الرقة وقوةِ التأثير ، وكم من الشعراء من يُحسِنُ أن يقول :

الصبر ينقص والسّقام يزيد والدار دانية وأنت بعيد
أشكوك أم أشكو إليك فانه لا يستطيع سواهما المجهود

ومن ذا الذى يستمع قولها فى المتوكل يتغنى به:

إن من يملك رقي مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العا لم هذا فى حسابى

ثم لا تميد به النشوة ويستخفه الطرب

وهل يحسن البحترى وأشباه البحترى أن يقولوا خيراً مما تقول فضل

لأكتمن الذى بالقلب من حرق حتى أموت ولم يعلم به الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هى الياس
ولا أبوح بشىء كنت أكتمه عند الجلوس إذا ما دارت الكاس

وانظر إلى استراضة الشعر لها، وانسياغه على لسانها يوم أهديت إلى المتوكل فقال لها أشاعرة أنت؟ فقالت كذا زعم من باعنى واشترانى، فضحك وقال أنشدينا من شعرك، فقالت:

أستقبل الملك إمام الهدى عام ثلاث وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى أن تملك الناس ثمانينا
لا قدس الله امرأ لم يقل عند دعائى لك آمينا

وكانت فضل مضرب المثل فى حسن البديهة وقوة الارتجال
ومما حدث ابن أبى طاهر أن بعض الشعراء ألقى عليها قوله

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقالت مسرعة:

فوالله ما يدرى أتدرى بما جنت على قلبه أم أهلكته وما تدرى

ومن حديث الفضل بن العباس الهاشمى أن المتوكل خرج متوكئاً على جاريتيه فضل وبنان ، فقال لهما أجيزا قول الشاعر :

تعلمت أسباب الرضا خوف سخطه   وعلمـــه حبي له كيف يغضب

فقالت فضل

تصــد وأدنو بالمودة جاهداً   ويبعد عنى بالوصال وأقرب

وقالت بنـان

وعندى له العتبي على كل حالة   فما منه لى بدّ وما منـه مذهب

وكانت فضل على بعد مرامها فى الشعر بعيدة الغاية فى النثر ، ومما قاله ابراهيم ابن المهدى فيها : كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاً ، وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم فى مخاطبة ، وأثبتهم فى محاورة ، قلت يوماً لسعيد بن حميد : أظنك يا أبا عثمان تـكتب لفضل رقاعها ، وتقيدها وتخرجها ، فقد أخذت نحوك فى الكلام وسلـكت سبيلك ، فقال لى وهو يضحك ، ما أخيب ظنك ! ليتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الـكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك

وبعد فكان جميلاً أن نستوفى القول عن هذه الجارية ونبين مالها على الأدب العربى من فضل وجميل ، لولا أن المقام لايتسع لأكثر من ذلك ، ولعلنا نوفيها القول فيما نـكتبه عن أدب النساء فى كتاب خاص

محبـوبة

وهى من نظائر فضل فى نشأتها وتربيتها وإهدائها إلى المتوكل ، فبالبصرة نشأت وفيها تخرجت ، وكانت أجمل من فضل وجهاً وأعلى نفساً وأشبه بها فى رقة طبعها وعذوبة لفظها وحضور خاطرها وقوة ارتجالها وإن وقعت دون غايتها فى ذلك كله

ومن حديثها أن قبيحة حظيَّة المتوكل كتبت على خدها بالغالية « جعفر » وهو اسم المتوكل فأعجبه ذلك منها ، وطلب إلى على بن الجهم أن يقول فى ذلك شعراً ، وكانت محبوبة حاضرة . فلم تدع لابن الجهم وقتاً يفكر فيه واندفعت من فورها تقول

وكاتبة بالمسك فى الخد جعفرا بنفسى مَخَطّ المسك من حيث أثرا
لئن كتبت فى الخد سطراً بكفها لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا
فيامن لمملوك لمِلْكِ يَمِينِه مطيع له فيما أسر وأظهرا
ويا من هواها فى السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

وكان فى المجلس على بن يحيى المنجم أحد شعراء المتوكل وندمائه ، فبقى الشاعران واجمين لاينطقان بحرف ، وأرسل إلى عريب فلحنت الشعر وغنى به المغنيات .

ومن حديث على بن الجهم قال :

كنت يوماً عند المتوكل وهو يشرب ، ونحن بين يديه ، فدفع إلى محبوبة تفاحة مغلفة ، فقبلتها وانصرفت من حضرته إلى الموضع الذى كانت تجلس فيه إذا شرب ، ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة فدفعتها إلى المتوكل ، فقرأها وضحك ضحكاً شديداً ، ثم رمى بها إلينا فقرأناها ، وإذا فيها

يا طيب تفاحة خلوت بها تشعل نار الهوى على كبدى
أبكى إليها وأشتكى دنفى وما ألاقى من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت من رحمتى هذه التى بيدى
إن كنت لا ترحمين ما لقيت نفسى من الجهد فارحمى جسدى

وكان المتوكل لايكاد يفارق محبوبة وقتاً من الزمان ، حتى إنه وهو فى مجلس خلافته كان يجلسها خلف ستر ثم ينثنى وراء الستر فيكلمها ، ثم غاضبها يوماً فهجرها ومنع جواريه أن يكلمنها وانقطعت عنه وانقطع عنها ، ثم أخبرته وصيفة بأنها فى

حجرتها تغنى ، فذهب حتى انتهى إلى حجرتها واستمع إليها فإذا هى تغنى بقولها :

أدور فى القصر لا أرى أحداً   أشكو إليـــه ولا يكلمنى
حتى كأنى ركبت معصية   ليست لهـا فـدية تخلصنى
فهل لنـا شافع إلى ملك   قد زارنى فى الكرى فصالحنى
حتى إذا ما الصباح عاد لنـا   عاد إلى هجـره فصارمنى

فطرب المتوكل طرباً شديداً وأعاد لها سابق عهده وقديم وده

ولما قتل المتوكل تفرق جواريه فكان مصير محبوبة إلى « وصيف » أحد المماليك الذين جلبهم المتعصم ثم غفل عنهم الزمان فأصبح لهم فى هذه الدولة ملك وسلطان ، وكان مصيرها إليه فى كثير من جوارى المتوكل ، فلما انتهين إليه جلس للشراب وأحضرهن عليهن الثياب المذهبة والجواهر الوضاءة وقد تصنعن وتطيبن إلا محبوبة فإنها جاءت مرهاء متسلبة[١] حزناً على المتوكل ، فغنى الجوارى جميعاً وشربن وطرب وصيف وشرب ، ثم قال لها يا محبوبة غنى ! فأخذت العود وغنت وهى تبكى وتقول

أى عيش يطيب لى   لا أرى فيـه جعفرا
ملكاً قد رأته عيـنى قتيـلاً معفـرا
كل من كان ذا هيـا   م وحزن فقد برا
غير محبـوبة التى   لو ترى الموت يشـترى
لاشـترته بملكها   كل هـذا لتُقـبرا
إن موت الكئيب أصـلح من   أن يعمرا

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها ، وكان بغا حاضراً — وهو خدينه وقسيمه فى التغلب على الملك والعبث بالخلافة — فاستوهبها منه ، فوهبها له ، فأعتقها وأطلقها

(١) المرهاء التى تترك عينها بغير كحل والمتسلبة اللابسة لبس الحداد

فخرجت من سُرَّ مَن رأى إلى بغداد واحتجزت نفسها عن لقاء الناس حتى ماتت

* * *

وبعد ، فإلى هذا الحد من الشواعر والمغنيات يقف القلم ، وما نحاول أن نستوعب الموضوع أو نحيط به لأنه أوسع من أن يحاط به ، وإذا استصفينا من ذلك شيئاً فحسبنا أن نقول إن أولئك الجوارى أتين فى الشعر والغناء ببدع جديد ؛ فالرقة النادرة ، والخفة الساحرة ، والأنوثة الظاهرة ، وكل ما من شأنه أن يسترق عقول السامعين ويستخف ألبابهم — كل ذلك كان أوضح ما عرف به جوارى هذا العصر ، وإذا علمت أن للمغنية من وسائل توطين النفوس وترويض الأرواح والاحتكام بالخواطر والمشاعر ، والإمعان فى الأعماق والسرائر مالا يتاح للرجل شىء منه سهل عليك أن تعرف قدر ما وصل النساء بهذا الفن من بعد الغاية وعلو المكان ، وإذا قيل أن هناك أئمة الغناء من الرجال أمثال ابراهيم الموصلى وولده إسحاق وإبراهيم بن المهدى وأشباههم قلنا إن هؤلاء لم يكن يصطفيهم إلا الآحاد المعدودون من خلفاء الدولة وصدورها ، فكان غناؤهم خبراً من الأخبار . أما أولئك النساء فقد كن فى منال العيون والأسماع فغلب ذكرهن عن الألسنة وشاع حكمهن على النفوس ، وفوق ذلك كن الحسن والاحسان فى ملك وسلطان ، حتى قال فيلسوف العرب وامام مفكريهم أبو نصر الفارابى « إن هذا الفن لايسمع من بين لحية وشارب » ولقد صور الشاعر البحترى هذا الأسلوب الذى امتاز به المغنيات بقوله :

وأشارت على الغناء بألحا ظ مراض من التصابى صحاح

فطربنا لهن قبل المثانى وسكرنا منهن قبل الراح

غلبة الجوارى على قلوب العرب

أما بعد فذلك الذى أسلفناه من فنون الجمال والتجمل عند الجوارى لم يكن كل ما ملكن من مواهب ، وما سلكن من مذاهب ، وما ارتدين من حسن وإحسان ، وما ابتدعن من فن وافتنان ، وليس فى الكتاب مستفاض لأصفهن لك طاهيات طعام ، أو ساقيات شراب ، أو سامرات ليل ، أو ناسقات بيت . على أنهن فى جملة ذلك كن صورة الحياة الناعمة ، والحضارة الباسمة ، والعيش الرغيد ، فأنت إذا تناولتها من أشتات نواحيها لا تجد إلا بهجة باهرة ، وفتنة ساحرة ، وكان أول آثار ذلك غلبتهن على قلوب الرجال ، واستحواذهن على عقولهم ، حتى لقد هتكوا فيهن ستر كل حشمة وخلعوا عذار كل وقار .

وكانت بيوت الخلفاء مُسْتَنّ القدوة ومسار الأمثال فى كل ذلك ، وأول من بذل من نفسه ، ورأيه ، وذخره ، وجلال منصبه لهؤلاء الجوارى الخليفة الثالث محمد المهدى ابن أبى جعفر المنصور ، وما كذلك كان السفاح والمنصور من قبله .

أما السفاح فكان عصره عصر عزم ومضاء وهدم وبناء ، فلم يكن له متسع للهو ولا سبيل إلى النساء .

وأما المنصور فقد ملك عليه بناء الملك وتوطين دعائمه وتوفير المال لتشييده سبيل خواطره ومشاعره . وكان بخيلا غيوراً مسوقاً إلى الجد من الأمر مخوفاً مهيباً . وربما مال قليلا إلى التبسط للسماع فلم يكن يظهر لنديم ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء ، وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً وبين الستارة والندماء مثلها ، فاذا غناه المغنى فأطربه حركت الستارة بعض الجوارى فاطلع إليه الخادم صاحب الستارة فيقول قل له أحسنت بارك الله فيك ، وربما أراد أن يصفق فيقوم عن مجلسه

ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذلك هناك . وكان لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رسماً فى الديوان ، ولم يُقطع أحداً ممن كان يضاف إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض .

ولما خلف من بعدهما المهدى أراد أول أمره أن يحتجب عن الناس متشبهاً بالمنصور فلم يطق البقاء على ذلك إلا قرابة سنة ، ثم انكشف للندماء ، فأشار عليه عبد الملك بن يزيد قائده وصاحبه أن يحتجب عنهم . فقال : إليك عنى يا جاهل ! إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور بين الندماء والإخوان إلا أنى أعطيهم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطونى من فوائدهم لجعلت لهم فى ذلك حظاً موفوراً . ومن ثَمَّ بدأ المهدى يتبذل .

وقد غلب عليه شغفه بالجوارى . فكان لا يطيق الصبر عن محادثتهن ومجالستهن وكان وزيره يعقوب بن داود يستثمر تلك العاطفة لنفسه . فكان إذا غضب عليه تقرب إليه بذكر الجوارى وأخذ يحدثه عنهن فيرضى عنه .

وما ظنك بخليفة ينهتك فى جاريته حتى يقول فيها :

أرى ماء وبى ظمأ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى
وأنك لو قطعت يدى ورجلى لقلت من الهوى أحسنت زيدى

ذلك قول المهدى فى « حسنة » جاريته .

وفى سبيل المهدى تداعى بنوه وحفدته . فهذا الهادى تملك زمام قلبه جاريته غادر حتى لا يطيق فيها لوماً ولا يجد عنها مصرفاً .

وهذا الرشيد ، ذلك الجبار الذى يرسل الكلمة فلا يبالى أى دم سفكت ولا أى

دار قوضت ، إنه لا يبالى كذلك أن يرسل الشعر الباكى المستكين فى جواريه ! وإليك فاسمع قوله فى ثلاث منهن :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
ما لى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطانى

وهؤلاء الثلاث هن اللاتى صرح بأسمائهن فى قوله :

إن سحراً وضياء وخنث ... هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ... ثلثى قلبى وترباها الثلث

وَخنث هذه إحدى الجوارى المغنيات المتبذلات وتعرف بذات الخال ، ولها حديث عجب ، فقد تعشقها وشبب بها ثلاثة شعراء : هم : إبراهيم بن المهدى ، وإبراهيم الموصلى ، والعباس بن الأحنف ، وذاعت أشعارهم فيها فى نواحى بغداد ، وتجاوزت بغداد إلى ما سواها من البلاد ، وتغنى بها الموصلى بين يدى الرشيد ، ورغم كل ذلك لم يتحرج الرشيد أن يشبب بها وينهتك فيها ! ! وتَرَسَّم الأمين أثر أبيه ، وما أظنه ابتكر ضرباً من ضروب اللهو ، وأكثر ما قيل عن خلاعته ومجانته مما موهه مؤرخو الفرس ، على أنه كان أوهب الجميع فى جد وهزل . فنى ليلة وهب إسحاق الموصلى أربعين ألف دينار ، وفى أخرى وهب عمه إبراهيم مائتى ألف ، ولا تنس أنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم.

وأما المأمون عالم الخلفاء وفيلسوفهم فقد أحدث بابتذاله حدثاً لم يسبقه أحد اليه ولا نظن أحداً لحقه فيه ، فقد حدّث أحمد بن صدقة أنه دخل عليه يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة رومية مزنّرات قد تزيَّنّ بالديباج ، وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون .

فهل رأيت كهذا ؟ خليفة رسول الله ، تُشد بين يديه الزنانير وتعلق الصلبان ويُرفع الخوص والريحان ! ذلك ما تحدثنا به الأخبار عن الخليفة المأمون .

وهل كان يخطر بنفسك أن يستحل خليفة المسلمين دم مسلم من أكبر رجال دولته لأنه طلب جاريته ، ثم علم أنها أصبحت حاملا منه . فلم يكن له سبيل إليها .

أما الرجل فعلى بن هشام ، وأما الجارية فتيم الهاشمية ، وأما الخليفة فالمأمون . ومتيم تلك جارية تنقل بها الرق من رجل إلى رجل ، واجتمع إليها الناس تغنيهم وتطربهم فهل تعلم مآل أمرها بعد أن قُتل سيدها فى سبيلها ؟ لقد اتخذها الخليفة المعتصم ابن الرشيد لا جارية ولا مغنية ، بل زوجة ذات إكليل وتاج .

وحديث القوم كله على هذا النسق ، كلما جاء خليفة أحدث فى تبذله حدثاً واستجد جديداً . وكان من أعجب حديثهم أن المسترشد خص ولده الراشد بعدة جوار ليلاعبنه وهو صبي مراهق ، فحملت منه إحداهن وهو دون البلوغ . هكذا يقول ابن الأثير .

نفوذ الجوارى

وكان من أثر تلك الغلبة على القلوب أن غلبن كذلك على سياسة الملك وتدبير الرعية .

فهذه الخيزران جارية المهدى وأم ولديه موسى وهرون ، قد بلغت من سعة الجاه ونفاذ الكلمة ما لم يبلغه وزير أو أمير . وكان بابها محط الولاة والقواد ، ومهبط ذوى الحاجات والآمال ، حتى فشت فيها القالة وساء عنها الحديث . كذلك كان أمرها فى عهد مولاها وزوجها المهدى .

ولما صارت الخلافة إلى الهادى درجت على سيرتها فى عهد أبيه . وكان الهادى فتى ألمعى القلب ، عزيز الجانب ، غيوراً على الحُرَم . فلما رأى الوفود تنثال على أمه

أرسل إليها ، ألا تخرج من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك ، فلم يثنها ذلك القول الحكيم عما أَلِفَتْهُ ، حتى إذا مضى عليها أربعة أشهر جاءت مرة تكلمه فى أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلا ، فقالت لا بد من إجابتى ! قال لا أفعل ، قالت فإنى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال ويلى على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها له ، قالت إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال إذاً لا أبالى ، وحمى وغضب ، فقامت مغضبة ، فقال مكانك تستوعى كلامى ! « والله — وإلا فأنا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم — لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدمى ، لأضربن عنقه ، ولأقبض ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك ! ما فتحت بابك لملى أو لذمى » فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة .

ثم جمع الهادى قواده ورجال دولته . فقال لهم : أيما خير ، أنا وأنتم ؟ قالوا بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال فأيما خير أمى أو أمهاتكم ؟ قالوا بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بأمه فيقول فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟ قالوا ما أحد منا يحب ذلك ، قال فما بال الرجال يأتون أمى فيتحدثون بحديثها ؟ ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فشق ذلك عليها وحلفت ألا تكلمه

ولكن هل كفاها منه ذلك الهجر ، وهل تروى المغاضبة غليل المرأة التى ترضعها أفاويق الملك ، وتسكرها بكأسه ، وتشعرها بعزته ، ثم تعود فتكف يدها وتكم فاها وتلزمها خدرها ؟

لم يكفها منه ذلك الهجر ، ولا ما فوق الهجر من شقاق ومكابرة ونزاع ومعاندة بل أمعنت فى الانتقام إلى آخر ما تصل إليه النفوس الممعنة فى الشر العارية من الفضيلة ، فقد حرضت الأم جوارى ولدها الشاب فقتلنه بغط وجهه والجلوس عليه حتى مات ... أفرأيت كيف تشترى الجارية عزة الملك وزهرة الحياة بدم العزيز النجيب من بنيها

أما الرشيد فقد قضى عليه أن يمكن فى ملكه لامرأتين : الخيزران أمه ، وزبيدة امرأته ، أما الخيزران فلأنها خاعت عليه رداء الملك مخضباً بدم أخيه ، وأما زبيدة فلأن ذات الخال وأشباهها عبثن بقلبه ، وغلبنه على عقله ، فأراد أن يشغلها عنه

وهل ترى أعجب من أن تغنيه ذات الخال ذات عشية فيحكمها فى ملكه فتسأله أن يولى صاحبها حمويه الخادم ولاية الخراج والحرب بفارس سبع سنين ، فيصدع الرشيد بالرأى ، ثم يخشى أن يموت فى خلال هذا الأمد فيكتب عهداً على من يليه من الخلفاء أن يضمن نفاذ العهد للخادم الأمير ! ذلك ما رواه صاحب الأغانى عن الرشيد

ومضت أجيال كان فيها للجوارى عز وشأن ، وملك وسلطان ، وكان من أشدهن استمكاناً فى الملك ومضاء فى الرأى أم المقتدر ، وهى جارية تركية فقد كان لها سطوة قاهرة على رجال الدولة ، وكانت تتصرف بالأحكام دون ولدها ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها

وقد عَرَض الجاحظ لذوات الجاه والنفوذ من الجوارى فقال :

ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس . مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ريطة ابنة أبى العباس ، وسكر وتركية جاريتى أم جعفر (زبيدة) ودقاق جارية العباسة ، وظلوم وقسطنطينية جاريتى أم حبيب ، وامرأة هرون بن مغبوبة ، وحمدونة أمة نصر بن السندى بن شاهك

ثم كنّ يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزين به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب

الجوارى عيون الخلفاء

وهناك ناحية من نواحى العمل انبثثن فيها واستشففن أسرار الملك من خلالها وذلك باتخاذهن عيوناً على الوزراء والقواد ووجوه رجال الدولة ، فكان الخليفة يهب الرجل جارية من جواريه فترصد منه كل إشارة وتتسمع منه أو من جلسائه كل كلمة فإذا أصبح الصباح كان ذلك كله عند الخليفة . ومن أنباء ذلك ما حدث الطبرى عن يعقوب بن داود وزير المهدى قال : بعث إلىّ المهدى يوماً فدخلت عليه فإذا هو فى مجلس مفروش بفرش مورد متناه فى السرو على بستان فيه شجر ورءوس الشجر على صحن المجلس ، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار ، من الخوخ والتفاح ، فكل ذلك مورد يشبه فرش المجلس الذى كان فيه ، فما رأيت شيئاً أحسن منه ، وإذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها ولا أشط قواماً ولا أحسن اعتدالا ، عليها نحو ما فى المجلس من الثياب ، فما رأيت أحسن من جملة ذلك ، فقال لى يا يعقوب ! كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قلت على غاية الحسن فتع الله أمير المؤمنين به وهنأه إياه ، قال هو لك ، احمله بما فيه وهذه الجارية ليتم سرورك به ، قال فدعوت له بما يجب ، ثم قال يا يعقوب ! ولى إليك حاجة ، قال فوثبت قائماً ثم قلت يا أمير المؤمنين ما هذا إلا من موجود ، وأنا استعيذ بالله من سخط أمير المؤمنين ، قال لا ، ولكن أحب أن تضمن لى هذه الحاجة وأن تقضيها لى ، فقلت لأمير المؤمنين وعلى السمع والطاعة ، قال والله ! قلت والله ثلاثاً ، قال وحياة رأسى ، قلت وحياة رأسك ، قال فضع يدك عليه واحلف به ، فوضعت يدى عليه وحلفت به لأعملن بما قال ، ولأقضين حاجته ، قال فلما استوثق منى فى نفسه . قال هذا فلان بن فلان من ولد على

ابن أبى طالب أحب أن تكفينى مؤونته وتريحنى منه وتعجل ذلك ، قلت أفعل ، قال فخذه إليك ، فحولته إلىّ وحولت الجارية وجميع ما كان فى البيت من فرش وغير ذلك وأمر لى معه بمائة ألف درهم ، قال فحملت ذلك جملة ومضيت به ، فلشدة سرورى بالجارية صيرتها فى مجلس بينى وبينها ستر وبعثت إلى العلوى فأدخلته على نفسى وسألته عن حاله فأخبرنى بها وتجمل فيها وإذا هو ألبّ الناس وأحسنهم إبانة ، وقال لى فى بعض ما يقوله ، ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ؟ قال قلت لا والله ، فهل فيك خير ؟ قال إن فعلت خيراً شكرت لك ، عندى دعاء واستغفار ، فقلت له أى الطرق أحب إليك ؟ قال طريق كذا وكذا ، قلت فمن هناك من تأنس به وتثق بموضعه ؟ قال فلان وفلان ، قلت فابعث إليهما وخذ هذا المال وامض إليهما مصاحباً فى ستر الله ، وموعدك وموعدهما للخروج من دارى إلى موضع كذا وكذا ، (الذى اتفقوا عليه) فى وقت كذا وكذا من الليلة ، وإذا الجارية قد حفظت علىّ قولى ، فبعثت به مع خادم لها إلى المهدى ، قال : وبعث المهدى من وقته ذلك فشحن تلك الطريق والمواضع التى وصفها العلوى برجاله ، فلم يلبث أن جاءوا بالعلوى نفسه وصاحبه والمال على السجية التى حكتها الجارية ، قال وأصبحت من غد ذلك اليوم فاذا رسول المهدى يستحضرنى ، وكنت خالى الذرع غير ملقٍ إلى أمر العلوى إلا حين أدخل على المهدى وأجده على كرسى بيده مخصرة فقال يا يعقوب ! ما حال الرجل ؟ قلت يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه ، قال مات؟ قلت نعم ! قال والله ! قلت والله ! قال قم فضع يدك على رأسى ، قال فوضعت يدى على رأسه وحلفت له به ، فقال يا غلام ! اخرج إلينا ما فى هذا البيت . قال ففتح باباً عن العلوى وصاحبه والمال بعينه ، قال فبقيت متحيراً وسقط فى يدى وامتنع على الكلام فما أدرى ما أقول ، قال: فقال المهدى لقد حل لى دمك لو آثرت اراقته، ولكن احبسوه

فى المُطْبَق فما زال به حتى انقضى عهد المهدى والهادى وأخرجه الرشيد فى عهده .

وممن احسنوا بث الجوارى للرقابة المأمون ، وكان عنده أسرار رجال دولته جميعاً ولما ذاع رأيه فى خلق القرآن وخاصمه عليه قوم من سراة أهل الرأى والعلم وثبتوا على خصومته رغم ما أصابهم منه من شدة وعنت أذاع فى الناس أسرار كل منهم وخفىّ عيوبه ومكنون دخائله ! وما عرف ذلك كله إلا من هذا الطريق

والعجب أن هذا الأسلوب من الرقابة قد ذاع بين الناس حتى أرصد بعضهم الجوارى على بعض ، ويعجبنى من رقيق الشعر قول الناشىء فى جاريته رقيبة

فديتك لو أنهم أنصفوا   لقد منعوا العين على ناظريك
أَلَم يقرأُوا ويحهم ما يرو   ن من وحى طرفك فى مقلتيك
وقد بعثوك رقيباً لنا   فمن ذا يكون رقيباً عليك

أمومة الجوارى

وكان آخر حلقة من حلقات امتزاج الفرس بالعرب واندماج العرب فى الفرس ما ناله الجوارى الفارسيات من أمومة الأسر العربية ، وقليل من رجال الحواضر العربية من لم ينزع بدمه إلى أم أجنبية ، ولكى نسوق لك المثل الواضح على ما نقول نذكر أن خلفاء الدولة العباسية الستة والثلاثين كانوا — إلاَّ ثلاثة منهم — من ولد الجوارى ، واذا نال الجوارى شرف ولادة الخلفاء فلم يكن عزيزاً عليهن أن يلدن مَن سواهم

وهذا هو البيت العلوى الذى ينزع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأئمة الاثنا عشر منه وهم الذين أولاهم الشيعة الإمامية جانب الطاعة ، ورفعوهم إلى مواطن التقديس ، وهذا آخرهم محمد المهدى الذى يدينون بأنه لا يزال حياً حتى يأذن الله له فيخرج إلى الناس ويملأ طباق الأرض نوراً وإيماناً وعدلا

وإحساناً ، أولئك جميعاً لا نجد منهم فى العهد العباسى إلا من كانت أمه جارية

وبعد فذلك كان شأن الجوارى فى العراق وتلك غايتهن التى انتهين إليها من الاحتكام بقلب الرجل العربى ، والتفرد بالمكان المحبوب فى المجتمع العربى ، والتمكن من قيادة الأسرة العربية ، والوصول بالأمة الفارسية إلى القضاء على العصبية العربية

والآن ننتقل إلى حديث الجوارى فى الأندلس ومدى أثرهن فى حياتها وقوة تأثيرها فى نسوتها

الجوارى فى الأندلس

أقام الأمويون ملكهم بالأندلس كما أقامه أسلافهم بالمشرق على دعائم العصبية العربية والبداوة العربية ، لأن هذه السياسة وسيلتهم فى تمكين الملك ومعاناة والفتوح ، فعبروا دهراً من الزمن لا يتخذون الجوارى إلا للمهنة والاستيلاد ، فأما الحظوة والمكانة فللعقائل من بنات العرب

كذلك لبثوا قرناً ونصف قرن أخمدوا فيها حمية الفتنة وسكنوا مضطرب الملك ثم بدأوا يأخذون لأنفسهم نصيباً من الراحة ويبتغون لها طريقاً إلى السرور فأصغوا إلى المشرق ونظروا إلى بغداد واستقدموا بعض جواريها المغنيات

قمـــر

ومن أول هؤلاء قمر البغدادية ، وهى قَيْنَة مغنية من أبرع قيان بغداد وأصنعهن فى الغناء وأعرفهن بفنون الكلام ، سمع بها إبراهيم بن حجاج صاحب أشبيلية فى أخريات القرن الثالث فوجه إلى بغداد بأموال عظيمة اشتريت بها حتى إذ قدمت الأندلس ازدرى بها نساء العرب لأنهن لم يألفن جارية ذات مكانة ، وأخذن يتهامسن إذا مرت ويتغامزن إذا غنت ، فقالت هى فى ذلك :

قالوا أتت قمــر فى زى أطمار من بعد ما هتكت قلباً بأشفار
تمشى على وجل تغـدو على سبل تشق أمصار أرض بعد أمصار
لا حرة هى من أحرار موضعها ولا لها غير ترسيل وأشعار
لو يعقلون لما عابوا غريبتهم لله من أَمَةٍ تُزرى بأحرار
ما لابن آدم فخر غير همتـه بعد الديانة والإخلاص للبارى
دعنى من الجهل لا أرضى بصاحبه لا يخلص الجهل من سب ومن عار
لو لم تكن جنـة إلا لجاهلة رضيت من حكم رب الناس بالنار

وقمر هذه هى التى اعتمدت بناء الأدب النسائى بالأندلس ، وهو الذى سنصفه لك فيما يمر بك ، ومما يمثل لك أسلوب هذا الأدب أبدع تمثيل قولها تتشوق إلى بغداد وتتغنى بمحاسنها وحسانها :

آها على بغـدادها وعراقها وظبائها والسحر فى أحداقها
ومجالها عنـد الفرات بأوجه تبـدو أهلتها على أطواقها
متبخـترات فى النعيم كأنما خلق الهوى العذرى من أخلاقها
نفسى الفـداء لها فأى محاسن فى الدهر تشرق من سنا إشراقها

الناصر وجواريه

ولما وَلِى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بلغ الجوارى فى عهده مبلغهن فى بغداد

وكان عبد الرحمن حين وثب إلى الملك فى مشرق العمر ونضرة الشباب ، وكان فتى لا تساميه الرجال مضاء فى العزم ولا سناء فى الرأى ولا نفاذاً فى التدابير ، وكانت أقاليم البلاد وأطراف الملك خاضعة للمتغلبين الذين استأثر كل منهم بما يملك من

دون الملك الأموى ، فأراد عبد الرحمن ألا يبقى فى الأندلس من ينازعه الملك ويجاذبه السلطان ، فما زال ينتزع المتغلبين واحداً بعد واحد حتى دانت البلاد له وألقت أزمتها إليه ، ثم اندفع بجيوشه إلى بلاد الفرنجة وما وراءها فدوخ مُلكها وأفزع ملوكها وأذل رجالها وسبى نساءها حتى تحامته القياصرة وتفادته الجبابرة ، وأنشأ الجميع يهدونه أنفس ما عندهم من جوهر ومال حتى اعتلى ذروة المجد واقتعد ظهور الآمال .

ومنذ ذلك العهد أخذ سيل الجوارى يتدفق على الأندلسْ وأخذن يسقين العرب من بنى أمية من الكأْس التى شرب منها بنو العباس ، بل كان أصحابنا فى الأندلس أسرع نشوة وأشد اندفاعاً من أشباههم فى العراق كدأب المقلدين من الناس أجمعين .

هذا هو الناصر ومكانته من سناء الرأى ومضاء العزيمة ماعلمْت ، تغلبه جاريته الزهراء على نفسه ورأيه وهمته فيوجهها جميعاً إلى تذليل المستحيل لهذه الجارية ، وإن من تذليل المستحيل قيامه بابتناء مدينة الزهراء .

الزهراء

وإذا ذكرت الزهراء فاذكر مايقول فيها صاحب نفح الطيب : « انه لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة أطبق الناس على أنه لم يُبنَ مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنِّحَل المختلفة من ملك وارد أو رسول وافد أو تاجر جاهد — وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كونَ مثله »

والحق أن القوة التى دفعت الناصر إلى بناء الزهراء لم تكن مما يدفع الناس إلى بناء قصورهم وعمائرهم ولا هى من جنون العظمة الذى دفع ملوك مصر الأقدمين

إلى بنـاء أهرامهم ومعابدهم ، فإن لهذا النوع من الجنون حداً يقف دونه أو ينتهى إليه ، ولـكنهـا قوة ساحرة يبثهـا النساء فى قلوب الرجال فينخلعون عن أموالهم وأرواحهم فى سبيلها .

أرصد الناصر على بناء الزهراء ما ورثه من مال وما جلبه من مغانم ، وإن تشأ فقد أرصد عليه ذخر أمم وأعلاق ملوك ، واستقدم له المهندسين من بغداد وروما والقسطنطينية ، واجتلب له الرخام الأخضر والوردى والمجزع من إفريقية وتونس وقرطاجنة ورية وروما ، وأعطى على كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية فكان ما جلب له ست عشرة وثلثمائة وأربعة آلاف سارية

وأقام الناصر على بناء الزهراء عشرين عاماً كانت تستنفد فيها كل يوم ستة آلاف صخرة غير ما كان يستنفده تمهيد طرقها وتعبيد مناهجها فذلك ليس فى هذا الحساب . وكان يقوم على البناء عشرة آلاف رجل يعملون دائبين كلما غاب منهم فوج أعقبهُ آخر

أما وصف المدينة فما يعجز عقل الإنسان عن تصويره وتصوره ، وهو كما يقول ضيا باشا صاحب تاريخ الأندلس « كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر التى لم يخطر مثل خيالهـا فى ذهن بَنّـاء منذ برأ الله هذا الـكون ولا تمثل رسم كرسمها فى عقل مهندس منذ وجدت العقول »

فأنت إذا شارفت المدينة وجدت سوراً يقوم عليه ثلثمائة برج حربى كأبراج القلاع وينتظم على محيطه ثلاثة عشر وخمسمائة وألف باب كلها من الحديد الملَبَّس بالنحاس أو الآبنوس المطعم بالفضة والذهب ! فإذا نفذت إلى المدينة من أحد أبوابها وجدت حديقة لا يحدها البصر ، تشقها طرق منسقة وبرك وغدران تلتقى جميعاً على البحيرة العظمى التى جلب إليها أكثر ما عرف من صنوف السمك ، وكان هذا

السمك من الكثرة بحيث يستنفد اثنى عشر ألف خَبزة وستة أقفزة من الحمص كل يوم. وعلى البركة تقوم تماثيل من الذهب المحلّى بالجوهر على هيئة الأسد أو الطير فوق الغصون وكلها تتصل بأنابيب من الفضة تمدها الماء من متالع جبل قرطبة، فإذا انتهى إلى أجوافها سمعت له زئيراً أو صفيراً ثم تلقيه من أفواهها فى البحيرة. وإلى جانب من البركة حديقة للوحش، وأخرى للطير تظللها الشبّاك

أما القصور فكانت فوق منال العقول، ومنها قصر الخلافة وكان سَمْكُه من الذهب والرخام المتماوج الشفاف، وكانت قراميد بهو الخلافة من الذهب والفضة وفى سقفه علقت اليتيمة، وهى الدرة التى أهداها إلى الناصر إليون ملك القسطنطينية وكانت تتألق فى سماء الغرفة كما يتألق النجم فى حاشية الظلام

وكان فى كل جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، وقامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى. وفى وسط هذا المجلس حوض عظيم مملوء بالزئبق وكانت الشمس تشرف على الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس فيتوهج من ذلك نور يأخذ سناه بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل المجلس أومأ إلى رجل من مواليه فيحرك ذلك الزئبق فتومض فى المجلس بروق تغشى الأبصار وتخيل للرائين أن القصر طار بهم فيفزع الرجل حتى يقع

ومن القصور القصر المؤنس، وفيه بيت المنام، وفى وسطه الحوض الأخضر المنقوش الذى جلب إليه من بيت المقدس، وفيه نقوش وتماثيل وصور على هيئة الإنسان، وعلى جانبه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة، والماء يتدفق من أفواهها جميعاً

وبين القصور مسجد الزهراء، وهو على هذا النسق الفريد من الجلال والجمال

ومن العجب أن الزهراء حين حلت به سألها الناصر كيف ترين هذا ؟ فقالت حسن لولا أن هذا الأسود يضاجعنى ! وأشارت إلى جبل قرطبة — فلم يكن غير قليل حتى كسى الجبل حلة مَوْشِيَّة منقطعة النظير من الزهر والريحان وشجر اللوز والصنوبر

ذلك هو القصر الذى استنفد جهد الناصر وهمته وماله عشرين عاماً ، وكان ذلك الجنون المبرح إلا لأن جاريته ثم زوجته الزهراء طلبت إليه بناءه فشرع به للناس شريعة الفناء فى جواريهم ، ولعمرى لئن رفع الناصر بنيان الدولة العظيمة وأعلى كلمتها ووحد فرقتها لقد احتفر لها القبر العميق بما مكن لهؤلاء فى الملك . ملك القلوب والأجساد

صبح

وهذا ابنه الحكم قد غلبت على قلبه وعرشه جاريته صبح البشكنسية فتبادر العظماء وذوو الحاجات إلى غشيان دارها وابتغاء الوسيلة عندها والزلفى اليها ، وبهذه الوسيلة انتقل المنصور بن أبى عامر من مقام الكتابة للناس على مدرجة الطريق إلى مقام الوزارة بل إلى مقام الملك لأنه تمكن بها من تقليم أظفار ولدها هشام بن الحكم ، وما زال ينتزع منه مظاهر الخلافة يوماً بعد يوم حتى حجبه عن الناس ومنع اسمه أن يذكر على أعواد المنابر أو يكتب فى صدور الرسائل وفى طرر الدراهم ، ثم استكتبه كتاباً جعل فيه ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبى عامر دون الغطارف من قريش وسلائل الملوك من بنى أمية ، فثار الأمويون لذلك ثورة دمروا فيها الزهراء وانتهبوا كنوزها ونفائسها فأصبحت فردوس الدنيا أطلالاً بالية ورسوماً عافية كل ذلك لأن الرجل توسل بدهائه وكياسته وجزيل هداياه وجميل ألطافه إلى قلب الجارية المُمَلَّكَة فما زال يصعد بها درجة بعد درجة حتى اعتلى هامة الملك

وكان كلما أراد الوثوب إلى أمانيه سرها بأمنية من أمانيها حتى لقد بنى لها مرة بيتاً من الفضة لم ير الراؤون مثله

شعر الملوك فى الجوارى

وجاء سليمان بن المستعين الخليفة الأموى فاتبع خلفاء بنى العباس وأذاع شعره تغزلاً وتبذلاً فى جواريه، مما تغنى به المغنون فى عواصم الأندلس

ومن قوله يعارض الرشيد فى أبياته التى أولها — ملك الثلاث الآنسات عنانى :

عجباً يهاب الليث حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان

وأقارع الأهوال لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت قلبى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان

ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان

هذى الهلال وتلك بنت المشترى ... حسناً وهذى أخت غصن البان

حاكمت فيهن السلوّ إلى الصبي ... فقضى بسلطان على سلطان

فأبحن من قلبى الحمى وثنيننى ... فى عز ملكى كالأسير العانى

لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى ملك وعز ثان

ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى

إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن فلست من مروان

ومن العجب أنك لا ترى عشاق الجوارى مهما عز جانبهم وتسامت منازلهم إلا أرقاء فى ألفاظهم أذلاء فى مشاعرهم وضعاء فى ألفاظهم يتوسلون إلى جواريهم بالذل ويقدمون إليهن أعناقهم للرق ولا ترى ذلك فى شعر من أضناه حب الحرائر من بنات العرب، بل إنه لا يتقدم إليهن إلا بغُرّ مآثره وعُظْم مفاخره

هذا المستظهر بن هشام وهو خليفة المستعين ونظيره فى جلال لقبه وسناء حسبه أحب أن يتزوج فتاة من قرابته فمطلته أمها فقال فيها بعض ما استفاض من عاطفته شعراً يفيض عزة وإباء. وكان مما قال:

يكلفها الأهلون ردى جهالة ... وهل حَسَنٌ بالشمس أَن تمنع البدرا
وماذا على أم الحبيبة إذا رأت ... جلالة قدرى أن أكون لها صهرا
وإنى لأرجو أن أطوف بمفخر ... بملكى لها وهى التى عظمت فخرا
وإنى لطعَّان إذ الخيل أقبلت ... جرائدها حتى ترى جُونها شُقرا
وإنى لأولى الناس من قومها بها ... وأنبههم ذكراً وأرفعهم قدرا
جمال وآداب وخُلق موطأ ... ولفظ إذا ماشئت أسمعتك السحرا

المعتمد وجواريه

ولعل أتعس مثل من أمثلة تبذل الملوك فى جواريهم وتهورهم فى مرضاتهن واندفاعهم إلى أعماق الهاوية من جرائهن المعتمد على الله محمد بن عباد صاحب أشبيلية ووارث ملك بنى أمية، فقد أنْهَب نفسه حظاياه فسبين لبه واقتسمن قلبه ومن حديثه أنه أرسلهن ذات ليلة من قرطبة إلى أشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح، ثم عاد عنهن وهو من فراقه فى حسرة والتياع، ومما قاله

سايرتهم والليل أغفل ثوبه ... حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثَمَّ مسلما وتسلمت ... منى يد الإصباح تلك الأنجما

وقال فى موقف الوداع:

ولما وقفنا للوداع غُدَيَّة ... وقد خفقت فى ساحة النصر رايات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا ... بِجَرْى الدموع الحمر فيها جراحات

اعتماد

وكان أشدهن امتلاكاً له واحتكاماً به جاريته اعتماد الرُّميكية التى اشتراها من رميك بن حجاج، وإليها ألقى زمامه وفى سبيلها أرخى عنانه ومن اسمها اشتق اسمه فتسمى بالمعتمد، وتلك التى يقول فيها الوزير الشاعر محمد بن عمار :

تَزوجتَها من بنات الهجان   رميكية لا تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع   لئيم التجارب عماً وخالا

وكانت اعتماد لاتشعر بأن فى الحياة أمنية عزيزة أو مطلباً بعيداً، فما نزعت نفسها إلى شيء حتى وجدته بين يديها على أحسن صوره وأتم وجوهه، ولقد رأت مرة فتيات أشبيلية يملأن الجِرَار من النهر وفى أقدامهن أثر الطين فأحبت أن تطأ الطين كما يطأن وتحمل الجرة كما يحملن، فصنع لها المعتمد جرة من سبيك الذهب وأوطأها المسك معجوناً بماء الورد والغالية. وشاءت المقادير أن ينهك هذا الترف قوة الملك وأن يطمع فيه العدو المتغلب وأن يعرف ذلك يوسف بن تاشفين أمير الملثمين بالمغرب فيخوض البحر إلى أشبيلية ويقصى العدو عن الملك ثم يقود الملك المستهام أسيراً ويقود صاحبته ونساءه وبناته وحواريه سبايا إلى أغمات من أعماق بلاد المغرب، ولم تدرك الملك الملثم رقة الدين ولا نبل الخلق فألقى أسيره المسكين مكبلا بالحديد فى غياهب السجن بين القتلة وقطاع الطريق، وترك بناته يطفن فى الأسواق بما يغزلن من الصوف حافيات الأقدام باديات الأجسام معروقات العظام وكذلك دخلن على أبيهن فى سجنه صبيحة عيد النحر فزفر زفرة كاد ينفطر لها قلبه ثم أنشأ يقول :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسروراً   فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لا خَدَّ إلا ويشكو الجدب ظاهره ... وليس إلا مع الأنفاس مطمورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردك الدهر مَنْهِيّاً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

ومن قوله يخاطب قيده حين بلغ به العظم :

قيدى أما تعلمنى مسلما ... أبَيْت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد ... أكلتُه لا تَهشِم الأعظما
ارحم طفيلا طائشاً لبه ... لم يَخْشَ أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ... جرعتَهن السم والعلقما
منهن مَن يفهم شيئاً فقد ... خفنا عليه للبكاء والعمى
والغير لا يفهم شيئاً فما ... يفتح إلا لرضاع فما

الجوارى المدنيات فى الأندلس

وتلك طائفة أخرى من الجوارى المجلوبات إلى الأندلس تصلها بغيرها صلة الاسم وتبعدها عنهن فوارق المبدأ والغاية والأثر .

ولقد عُرفت المدينة منذ استوطنها اليمانون من الأوس والخزرج بالرقة والظرف وإتقان الغناء والعزف ، ودرجت على ذلك فى الإسلام ولم تنحرف عن شهرتها فى ذلك كله حتى فى عهد النبوة والخلافة .

واتصل الأندلسيون بأهل المدينة فى مواسم الحج واستمعوا غناء جواريهم ، فذهبن بهم كل مذهب من الطرب والإعجاب ، وسارت الأنباء بذلك إلى الأمير

عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس ، فاستقدم منهن جماعة عرفن بالأدب الغض والشعر الرائع والغناء البديع ، وابتنى لهن دار المدنيات بقرطبة وأجرى عليهن المثوبة والألطاف وأوسعهن بالبر والإكرام ، ومن هؤلاء فضل وعلم وقلم . وقد عرف هؤلاء جميعاً بشرف النفس ونبل الخلق وكمال الخلال . ولم يكن فيهن مافى بنات الروم والصقالبة والجلالقة من خِلابة ودَعابة فهن لا يصلحن لذلك وفيهن السوداء والحمشاء ، والعجفاء ، ولكنهن مع ذلك كن مشرقاً من مشارق الجمال الفنى فى تلك البلاد . ولقد يجمل بنا أن نسوق حديثاً عن إحدى هؤلاء الوافدات وتسمى بالجارية العجفاء لتعلم إلى أى حد بلغ أولئك الجوارى فى التأثير على نفوس أهل الأندلس .

قال الأرقى : قال لى أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك — هل لك فى أحسن الناس غناء؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى ابن زهرة ، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً فى مثلها ، وطوله فى السماء ستة عشر ذراعاً ، وفى البيت نُمْرُقتان قد ذهبت عنهما اللُّحمة وبقى السَّدى وقد حشيتا بالليف ، وكرسيان قد تفككا من قدمهما ، ثم أُطلِقَتْ علينا عجفاء كلفاء عليها هَرَوى[1] أصفر غسيل ، وكأن وَرِكيها فى خيط من وسخهما ، فقلت لأبى السائب : بأبى أنت ماهذه؟ فقال اسكت ! فتناولت عوداً فغنت :

بِيَد الذى شغف الفؤاد بكم ... تفريج ما ألقى من الهم
فاستيقنى أنْ قد كلفت بكم ... ثم افعلى ماشئت عن علم
قد كان صرم فى الممات لنا ... فعجلت قبل اليوم بالصرم

(١) الهروي نوع من خشن الثياب يجلب من هراة احدي مدائن خراسان (افغانستان الآن)

قال فحسنت فى عينى ، وبدا ما أذهب الكلف عنها ، وزحف أبو السائب وزحفت معه . ثم تغنت :

بَرِح الخفاء فأىّ ما بك تكتم ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمن من غرير قَلْبُــه يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا تلقى المراسِىَ طائعاً وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه ونكون إخواناً فماذا تنقم

فزحفت مع السائب حتى فارقنا النُّمرُقتين ، وربَتِ العجفاء فى عينى كما يربو السويق بماء مزنة . ثم غنت :

يا طول ليلى أعالج السقما إذ حل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً فاليوم أمسى فراقكم عُزِما

فألقيت طيلسانى ، وأخذت شادكونة وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول رقعة فى البيت فيها قوارير ودهن ، فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب البيت — وكان أخنف — قوانينى قوانينى ! ! » قواريرى قواريرى » وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره

ومن هذا ونحوه تعلم أن هؤلاء الجوارى لم يجتلبن لما اجتلب له غيرهن ، وقد حُرر هؤلاء وتزوجن وانبثثن فى أسر الأندلس يُعلمن نسوتها الأدب، ويروِّينهن الشعر ويلقِّنهن الغناء فى حشمة ووقار

وقد ظهر فى هؤلاء الوافدين من تجاوزت الأدب والغناء إلى الفقه والحديث كعابدة المدينة ، فقد روت عن مالك بن أنس وغيره من أئمة المدينة ، قدم بها الأندلس محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، وكان كثير الاعجاب بعلمها وفهمها ، وتزوجها بشر بن حبيب الأندلسى فنها سائر ولده

وتعد وفادة هؤلاء الجوارى إلى الأندلس مطلع عهد جديد للأدب والشعر والغناء بالأندلس، وذلك ما سنتناوله بالقول عند الكلام عن الأدب النسوى بالأندلس

بنو الأغلب

ذلك حديث أهل الأندلس ، وفى مساقهم سار بنو الأغلب ملوك تونس ، وعنهم وعن ملوك العراق وردوا موارد اللهو وشربوا كئوس النعيم ، ومن بغداد وقرطبة أستوردوا الجوارى الفارسيات والصقلبيات ، ومن حديثهم أن المعتمد على الله العباسى ساوم فى جارية شغفته حباً ، وأبلغها جهد ما يطيق ، وهو يومئذ ولى عهد الخلافة العباسية — فأبى عليه صاحبها وأبلغها حداً ليس فى منال ولى العهد ، فلما أعجزه شراؤها ذهب بها صاحبها إلى ابن الأغلب فباعها منه

ثم لما فتحت عليهم جزيرة صقلية ومالطة تدفق عليهم سيل الجوارى الروميات فحللن من منازلهم وقلوبهم محلا لا يرام ، حتى انتهى الأمر إلى « زيادة الله » آخر عقدهم فقسم نفسه بين مماليكه وجواريه . وبلغ من إيثاره لأحد غلمانه أن ضرب النقود باسمه وترك له زمام الملك يلهو بتصريفه . ثم غضب عليه فأقصاه، حتى جاءت جارية فشفعت فيه ، فأعاده إلى مكانه ...!! وكان ملكا عزيزاً فذل ، وقوة هائلة فهانت . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

الفاطميون

وجاء الفاطميون فى أعقاب بنى الأغلب ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم وما زال ظلهم يمتد وملكهم يتسع حتى وسع مصر ، وبلاد الشام ، والحجاز واليمن ووافتهم النعمة من كل مكان ، وأضاء لهم العز من كل أفق ، وجلبت إليهم الجوارى

من كل قطر . ولـكنهن لم يجدن عندهم من الحُظوَة والقوة ونفاذ الرأى وعلو الشأن ما وجدن فى غير مصر من سائر البلدان ، لأنهم راموا الخلافة بوسيلة النبوة المقدسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنهم كانوا يُروِّجون لأنفسهم بالإرجاف ببنى العباس ، وإذاعة السوء عنهم ، وقولهم فيهم إنهم ملَّـكوا الجوارى زمام أمورهم وقِوَام سياستهم . ولما علم المعز لدين الله — وهو لم يزل بعد أميراً على تونس — أن ابنة الأخشيد اشترت جارية حسناء من بنات بغداد لتستمتع بها ، أرسل قائده جوهراً لفتح مصر ، وقال الآن لا يصدنا عنها شىء . فكان الأمر وفاق ما قال . وكان كل ذلك حائلا دون بلوغ الجوارى مبلغ التغلب على قلوب خلفاء مصر والاحتكام بملـكهم ، والعبث فى جماعتهم . وما زلن كما هن أدوات مهنة ووسائل زينة حتى جاء عهد المستنصر — وكان قد أوتِىَ الملك صبياً لم يبلغ السابعة ، وأقام فيه ستين عاماً وسبعة أشهر . ولما تنصف ذلك الأمد الطويل أدركته ملالة فمال إلى اللهو . واستراض للجوارى ، على أن القدر لم يدعه فى لهوه طويلا ، فأصيبت مصر بمجاعة مهلكة ذهبت باليابس والأخضر . ولبثت تجتاح الحرث والنسل وتعصف بالحَب والنوى سبع سنين دَأَباً ، حتى أشفق الخليفة على حُرمه وبناته أن يأكلهن الجوع فأرسلهن إلى بغداد ، وحتى لم يبق فى دار الخلافة إلا جواد مهزول يركبه الخليفة ويسير من حوله حرسه وحاشيته مشاة يميد بهم سكر الجوع . وكان للملك من ذلك عظة بالغة ، فإنه أقلع من بعدها عن اللهو وأناب إلى الله . وجاء الملوك من بعده فلم يكن منهم إلى جواريهم نزوع شديد كالذى كان فى قرطبة وبغداد .

* * *

ذلك الذى بسطته لك شأن الجوارى فى العالم العربى ، وقد ذكرته لك ضافياً مستفيضاً لأنه أقوى المؤثرات فى حياة المرأة العربية . وسنجلو من ذلك الحديث

وجه العظمة ونستخلص مدى الأثر حين نعرض لتلك المرأة وما نالها فى هذه الدول من خير أو شر . وننتقل بمعونة الله وتوفيقه الى ذكر الديارات المنبثة فى بلاد العرب وما أنشئت له من غاية ، وما كان لها من أثر .

الديارات

كان الفرس فيما قصدوا إليه من نشر آدابهم وبث حضارتهم ينزعون الى غاية واحدة هى إخماد العصبية العربية ليتم لهم ما أرادوا من إعادة مجدهم الغابر ، وملكهم القديم ، وما عليهم من سبيل أن يرتدوا لبوس الدين طائعين أو خادعين .

أما الروم والسريان ومَنْ سواهما من نصارى المشرق والمغرب ، فقد كان همهم من العرب غيرَ همِّ الفرس منهم . وغاية هؤلاء أن ينقُضوا دعامة الإسلام ليشقوا الصفوف للنصرانية فى بلاد العرب ، فأخذوا يُقَلِّبون للإسلام وجوه الحيلة ويفوِّقون عليهِ سهام الغيلة ، ويحشدون عليه جيوش التدبير ، ولكنهم قوم أولو سياسة ودهاء ، فهم لا يخطبون فى حفل ، ولا ينطقون فى جمع ، ولا يبعثون كتاباً ، ولا ينمقون صحيفة ، ولا يبادهون أحداً برأى ، ولا يشافهون أحداً بمكروه . بل أخذوا يمزجون العسل المصفى فى السم المذاب ، وأنشئوا يبثون الشكوك والشبهات فى مزاج من المآرب والشهوات . وذلك ما أعدوه فى دياراتهم التى نثروها فى كل مكان من بلاد العرب .

وكانت عناية القوم بتنظيم دياراتهم وتنسيقها واختيار مواطنها الصالحة لها مما يفوق كل عناية ، وأكثر ما تكون فى أرباض المدن وبين أشتات القرى وعلى طرق القوافل ، وفى منقطع الصحراء ، وفوق سفوح الجبال ، وفى كل مكان يكون انتياب الناس له وتواردهم عليه .

وعلى الرغم من تكاثر الديارات وانشعاب مواطنها وترامى قواصيها وتباين بلادها كانت كلها على نسق واحد من الجمال الغض الذى تنساق النفوس إليه ويحلو العيش فيه . فهناك فى نجوة من الأرض تجد خميلة من الزهر قد عكفت عليها ظُلّة من الكرم وانبعثت من ورائها أصوات ندية يحمِّلها إيقاع جاوز غاية الإبداع ؛ منظر يستهوى السمع والبصر ويستخف الأجسام والأحلام ، حتى إذا دخلها الداخل — وهى لا تمتنع على قاصد — وجد النسيم بارداً خفاقاً والماء صافياً سلسالاً والخمر صرفاً معتقة ، ووجد فوق ذلك إن شاء طعاماً هانئاً ومناماً هادئاً ، وليس ذلك بشىء فى جانب ما يسلب نهاهم من وَلَه العشق وفتنة الجمال

ولشد ما غشيت تلك الديار بذوى الأخطار من خلفاء الدولة وأمرائها وساستها ووزرائها وكتابها وشعرائها ، فكان لهم منها مآب طيب وجدوا فيه كل ما تشتهى النفس من مطاعم ومشارب وأغراض ومآرب ينبئك عنها ما سار من شعرهم فى وصف تلك الديارات وأفنانها وحسناتها وحسانها وما أصابهم تحت ظلالها من حب شرد أحلامهم وسهّد أجفانهم وأحرق أكبادهم ، وبين هذه المنايا وتلك المنى أثيرت روح الشبهات على الإسلام وعصفت ريح الزندقة والإلحاد . وليس من الحق أن تتهم العلم الذى نقله العرب عن أمم الحضارة بإثارة الشكوك والرِّيَب فما عرف عن أئمة هذه العلوم إلا الدين الصريح والإيمان الصحيح ، وإنما الملحدون جماعة من الشعراء والمتأدبين والمتبطلين وأشباه المتعلمين ممن ألفوا غشيان تلك الديارات وأقاموا فيها ما أقاموا ثم انثنوا عنها بلا قلب ولا لب ولا دين ولا عقيدة . على أن الذى يعنينا الآن من هذه الديارات أن العرب أصيبوا فيها بنوع من الفتنة أشجى قلوبهم وأطال عناءهم لأن هذا الجمال الذى رأوه لم يكن مما ابتذلته عيونهم وملكته أيمانهم . وكثير من ذوى الرأى والعلم كان يذهب إلى تلك الديار فيقيم فيها ماشاء

أن يقيم فإذا انصرف عنها شغفه الحب وشغله النوح عن بيته وآله ، وما ظنك برجل من خاصة رجال الملك يسير فى ركاب مولاه سميراً ونديماً حتى يبلغ ديراً فينفتل إليه ليلهو بالنظر إليه لحظة ثم يعود فما هو إلا أن قدموا له الشراب والطعام والكأس والنِّدام حتى ينسى الملك فيشرب وينام ، وذلك ما يحدث به إسحاق بن ابراهيم الموصلى فيما رواه عنه صاحب الأغانى ، قال :

خرجنا مع الرشيد يريد الرَّقة فلما صرنا بالموضع الذى يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد فى طلب الصيد ، ولاح لى دير فقصدته وقد تعبت فأشرفت على صاحبه فقال هل لك فى النزول بنا اليوم ؟ فقلت إى والله وإنى إلى ذلك لمحتاج ، فنزل ففتح لى الباب وجلس يحدثنى — وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بنى أمية — فجعل يحدثنى عمن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم وعرض علىّ الطعام فأجبته ، فقدم إلىّ طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه ، وأتانى بشراب وريحان طرى فشربت منه ، ووكل بى جارية تخدمنى راهبة لم أرَ أحسن وجهاً منها ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتبهت عشاء فقلت فى ذلك

بدير القائم الأقصى غزال شادن أحوى
برَى حبِّى له جسمى ولا يعلم ما ألقى
وأكتم حبه جهدى ولا والله ما يخفى

وركبت فلحقت بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب وطلبنى فلم أوجد ، وأخبرت بذلك فغنيت فى الأبيات ودخلت إليه ، فقال لى أين كنت ويحك ! فأخبرته بالخبر وغنيته الصوت فطرب وشرب حتى سكر وأخّر الرحيل فى غد ومضينا إلى الدير ونزله فرأى الشيخ واستنطقه ورأى الجارية التى كانت تخدمنى بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ودعا بالشراب وأمر الجارية التى كانت بالأمس تخدمنى أن

تتولى خدمته وسَقْيه ففعلت، وشرب حتى طابت نفسه، ثم أمر للدير بألف دينار وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين فرحلنا، فلما صرنا بتل عزاز من دابق خرجت أنا وأصحاب لى نتنزه فى قرية من قراها فأقمنا بها أياماً وطلبنى الرشيد فلم يجدنى، فلما رجعت أتيت الفضل بن الربيع فقال لى أين كنت؟ طلبك أمير المؤمنين فأخبرته بنزهتنا فغضب وخفت من الرشيد أكثر مما لقيت من الفضل فقلت

إن قلبى بالتل تل عــزاز   عند ظبى من الظباء الجوازى
شادن يسكن الشآم وفيه   مع ظَرْفِ العراق شكل الحجاز
يا لقومى لبنت قَسٍّ أصــابت   منك صفو الهوى وليست تجازى

وغنيت فيه، ثم دخلت على الرشيد وهو مغضب فقال أين كنت؟ طلبتك فلم أجدك! فاعتذرت إليه وأنشدته هذا الشعر وغنيته إياه فتبسم وقال عذر وأبيك أى عذر، وما زال يشرب عليه ويستعيدنيه ليلته جمعاء حتى انصرفنا مع طلوع الفجر، فلما وصلت إلى رحلى إذا برسول أمير المؤمنين قد أتانا يدعونا فوافيت فدخلت واذا ابن جامع يتمرغ على دكان فى الدار وهو سكران يتململ، فقال لى يا ابن الموصلى أتدرى ما جاء بنا؟ فقلت لا والله ما أدرى، فقال لكن والله أدرى دراية صحيحة جاءت بنا نصرانيتك... عليك وعليها... وخرج الآذن فأذن لنا فدخلنا، فلما رأيت الرشيد تبسمت فقال لى ما يضحكك فأخبرته بقول ابن جامع فقال ما صدق ما هو إلا أن فقدتكم فاشتقت إلى ما كنا فيه، فعودوا بنا فعدنا فيه حتى انقضى مجلسنا وانصرفنا...

ذلك مثل من حديث الديارات، ومثله جمٌّ كثير، وما نحاول أن نتهم تلك المعابد بأنها كانت من مباذل القوم ودور خلاعتهم، ولا بأن رهبانها أباحوهم ما أرادوا من لهو ومجانة، ولكنهم وجدوا فيها فناً من الجمال لم يحوزوه فى بيوتهم،

ولم تنبسط عليه أيديهم ، وأصاب ذلك منهم نفوساً مبيحة ، وسرائر نازعة ، فشغفوا به . وشُغلوا بالحديث عنه ، وغرهم من أمره ما وجدوا من تبسط الرهبان لهم بالسَمَر والمحادثة ، وبالمحاورة والمجادلة ، وبالكرم والضيافة ، وبكل ما تسكن إليه النفس وتطيب به ، فإذا رأيت انخلاع القوم فى الفتنة بهذه الديارات فإنما هى فتنة الطمع فيما عز عليهم ، والتشبيب بما ندّ عن حياتهم ، والولوع بفنون الجمال المتناسقة هنالك من ظل وبستان ، ورَوْح وريحان ، ووجوه حسان ، وشراب روىّ ، ومسمع ندىّ ، وما إلى ذلك من فتنة السمع والبصر والنفس والقلب

وجميل بنا أن نلم الملمة بأشهر الدِّيَرَة التى فتنت العرب وأثارت مشاعرهم وأرسلت أشعارهم ، ومن جملة ما يساق لك من الشعر تعلم كيف كان شغف القوم بتلك المواطن

من ديارات العراق

دير أحويشا

ومكانه بديار بكر ، وكان غاية فى السعة والبهاء ، وحوله البساتين والكروم ، ويحمل خمره إلى ما حوله من البلدان لجودته ، وإلى جانبه نهر يعرف بنهر الروم وفيه يقول محمد بن طنّاب الشاعر :

وفتيان كهمِّك من أناس … خفاف فى الغدو وفى الرواح
نهضت بهم وستر الليل مُلْقًى … وضوء الصبح مقصوص الجَناح
نؤم بدير أحويشا غزالاً … غريب الحسن كالقمر اللَّيَاح
وكابدنا السرى شوقاً إليه … فوافينا الصِّباح مع الصباح
نزلنا منزلاً حسناً أنيقاً … بما نهواه معمور النواحى
قسمنا الوقت فيه لاغتباقٍ … على الوجه الجميل ولاصطباح

وظلنـا بين ريحان وراح   وأوتار تساعدنا فِصـاح
وساعفنا الزمان بما أردنا   فأبنا بين ريحان وراح

دير الأعلى

ومستقره بالموصل فى أعلاها على جبل مطل على دجلة ، يضرب به المثل فى رقة الهواء ، وحسن المستشرَف ، وفيه يقول الخالدى

قمر بدير الموصـل الأعلى   أنا عبده وهواه لى مولى
لثِم الصليب فقلت من حسد   قُبَلُ الحبيب فمى بها أولى
جُدْ لى بإحداهنَّ نَحْوِ بها   قلبى لِحُبته على المقلى
فاحمر من خجل وكم قطعت   عينى شقائق وجنة خجلى
وثَكِلْت صبرى عند فرقته   فعرفت كيف مصيبة الثكلى

دير باشهرا — على شاطىء دجلة بين سامَرًّا وبغداد ، وفيه يقول أبو العيناء :

نزلنا دير باشهرا   على قسيسه ظهرا
على دين يسوعىّ   فما أسنى وما أمرا
فأولى من جميل الفعْل ما يستعبد الحرا
وسقّانا وروانا   ورابطنا به عشرا

دير الثعالب — على مقربة من بغداد ، وبينه وبينها ميلان ، ومَدَاه أكثر من ميل وفيه يقول محمد بن جعفر العباسىّ :

دير الثعالب مألف الضلاَّل   ومحل كل غزالة وغزال
كم ليلة أحييتها ومُنادمى   فيها أغَنُّ مقطَّع الأوصال
وسقيته وشربت فضلة كأسه   فرويت من عذب المذاق زُلال

دير درمالس — فى جانب من بغداد ، وهو نَزِه كثير الأشجار والبساتين ، وفيه يقول أحمد بن حمدون النديم :

يا دير دُرمالس ما أحسنك ... ويا غزال الدير ما أفتنك
لئن سكنت الدير يا سيدى ... فإن فى جوف الحشا مسكنك
ويحك يا قلب أما تنتهى ... عن شدة الوجد لمن أحزنك
ارفق به بالله يا سيدى ... فإنه من حتفه مكّنك

دير قُنَّى — على بعد ستة عشر فرسخاً من بغداد ومسافة ميل واحد من دجلة ، وفيه يقول محمد بن الحسن القُمّى :

يا منزل اللهو بدير قُنَّى ... قلبى إلى تلك الربا قد حنّا
سقيا لأيامك لما كنا ... نمتار منك لذة وحسنا
أيام لا أَنْعَمُ عيشاً منا ... إذا انتشينا وصحونا عدنا
وإن فَنِى دَنٌّ بَزَلنا[1] دَنّا ... حتى يظُنَّ أننا جُنّنّا
ومسعد فى كل ما أردنا ... يحكى لنا الغصن الرطيب اللدنا
أحسن خلق الله إذ تثنى ... وجس زير[2] عوده وغنّى
بالله يا قسيسَ بَابَا قُنّى ... متى رأيت الرشأ الأغنا
متى رأيت فتنتى تجنّى ... آه إذا ما ماس أو تثنى
أسأت إذ أحسنت فيك الظنا

دير قوطا — على مقربة من البرَدَان بينه وبين بغداد ، وهو من أبهج الديارات وأحسنها وأكثرها خمائل وبساتين . وفيه يقول عبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع .

---

(١) بزل الخمر ثقب اناءها (٢) الزير الدقيق من الأوتار

يا دير قوطا لقد هيجت لى طربا ... أزاح عن قلبيَ الأحزان والكُرَبا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها ... لما وصلت به الأدوار والنُّخَبا
فى فتية بذلوا فى القصف ما ملكوا ... وأنفقوا فى التصابى العِرضَ والنشبا
وشادن ما رأت عينى له شبهاً ... فى الناس لا عجماً منهم ولا عربا
إذا بدا مقبلا ناديت واطربا ... وإن مضى معرضاً ناديت واحربا
أقمت بالدير حتى صار لى وطنا ... من أجله ولبست المِسح والصُّلُبا
وصار شماسه لى صاحبا وأخا ... وصار قسيسه لى والداً وأبا

دير اللج — من ديارات الحيرة، وليس فى الحيرة موطن أحسن بناء ولا أنزه موضعاً منه، وفيه قيل:

سقى الله دير اللج غيثاً فإنه ... على بعده منى إلىّ حبيب
قريب إلى قلبي بعيدٌ محله ... وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيِّج ذكراه غزال يحله ... أغن سحور المقلتين ربيب
إذا رجَّع الإنجيل واهتز مائداً ... تذكر محزون وحن غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته ... بلابل أسقام به ووجيبُ

ومن دِيارات الشام

دير صليبا — وهو فى قبالة باب الفراديس من دمشق، وفيه يقول أبو الفتح محمد بن على:

جنّةٌ لقِّبت بدير صليبا ... مبدعاً حسنه كلاًّ وطيبا
جئته للمقام فيه يوماً فظَلْنَا ... فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
شجر محدق به ومياه ... جاريات والروض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحى به الشّـاكل ممـا يرى لديه طروبا
كم رأينـا بدراً به فوق غصن مائس قد علا بشكل كثيبا
وشربنـا به الحيـاة مداما تطلع الشمس فى الكئوس غروبا

دير الطور . وهو غير دير طورسينا — ومكانه بين طبرية واللّجّون ، وحوله الكروم والبساتين ، ومن دونه الغَوْر والمرْج ، وفيه يقول الشابشتى :

قـد أبانت لِىَ الرياض من الزهـر غريب الصنوف والألوان
وبدا النرجس المفتح يرنـو من جنون الكافور بالزعفران
وقف الطلّ فى المحاجر منهـا ثم ماست فانهلّ مثل الجُمان
يا غلام اسقـنى فقد ضحك الوقـت وقد تمّ طيب هذا الزمان
أدْنِ منى الدنان ، صُبّ الأباريـق ، استحثّ الكؤوس ، صف القنانى
بادر الوقت واغتـنم فرصة العيـش ولا تُكْذَبَنّ فالعمر فان

دير المصلّبة — وموضعه فى ظاهر بيت المقدس ، وهو دير نزِه بديع الموقع حسن المنظر تحف به أشجار التين والزيتون والكروم ، وفيه يقول الحسن الغزّى

يا حسن أيام قطعتُ هنيئةً بالدير حيث التينُ والزيتونُ
دير المصلّبة الرفيع بناؤه تفدى عبـيرَ ترابه دارين
ومزنّرين إذا تلوا إنجيلهم وتعطفوا لحمائم وغصون

. . . .

وسعوا بكاسات المدام وما دروا أن للكؤوس الدائرات جنون
فقضيت بينهمُ زماناً لم يزل عندى إليه تشوق وحنين
تلك المنازل قد سفحن مدامعى لا مصر قاطبة ولا جيرون

دور المآثم

وامتد لسان الفتنة وأمعنت وسائل العيش حتى أنبثت بيوت الدعارة وهى التى كانوا يدعونها بيوت الكشاخنة بين دور الحرائر فى أشتات الحواضر ، وكانت أثراً محتوماً من آثار احكام الترف وتفاقم الشهوات وازدياد الجوارى عن حاجة المحتاج ، وكان ظهور تلك الدور فى دارالسلام أكفى دليل على عتو ريح الشهوة وإمعان سلطانها فى النفوس . وقد بسط الجاحظ فى رسالة القيان حديث تلك البيوت وذكر كيف كانت تستباح فيها الأعراض وتنتهك فيها الحرمات . والعجب أن ترى رجلا من سمار الملوك وندمائهم وذوى المنزلة الدانية منهم مثل إسحاق الموصلى يذيع شعره فى رثاء امرأة من صواحب تلك البيوت ، وذلك ما يقوله فى هشيمة الخمارة :

أضحت هشيمة فى القبور مقيمة ... وخلت منازلها من الفتيان
كانت إذا هجر المحب حبيبه ... دبت له فى السر والإعلان
حتى يلين لمـــا يريد قياده ... ويصير سيئه إلى الإحسان

هذا استحق نديم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ومغنيهم وشاعرهم فمن منهم تنكر له أو تغير عليه من أجل ذلك ؟!

وكما ذاعت بيوت الدعارة فى حواضر البلاد ذاعت كذلك الحانات فى غير سر ولا استخفاء ، وما ظنك بالخليفة الواثق يعقد حانتين إحداهما فى دار الحرم ليغشاهما ويمتع نفسه بما يقال وما يدار فيهما ، وإليك فاسمع حديث صاحب مسالك الأبصار فى سياق ذلك :

قال حمد بن حمدون : كان الواثق يحب المواخير[١] وما قيل فيها وما غنى به فى ذكرها ، فعقد حانتين إحداهما فى دار الحرم والأخرى على الشط وأمر بأن يختار له خمار نظيف جميل المنظر حاذق بأمر الشراب ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قُطْرُبُّل[٢] فأتى بنصرانى له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة ، فجعلهم الواثق فى الحانتين وضم إليهم خدماً وغلماناً وجوارى رومية وأخدم النساء حانة الحرم والرجال حانة الشط ، ونقل إليهما طرائف الشرب وفرشهما من فرش الخلافة وعلق عليهما الستور وجعل فيها الأوانى المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه .

فلما فرغ منهما أمر بإحضار المغنين والجلساء ولم يدع أحداً من ضُرَّاب الطنابير إلا أحضره وحضرنا وخرج الخمار هو وأولاده معه عليهم الأقبية المسهمة وفى أواسطهم الزنانير المحلاة ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل فى الصوانى . وأخرجت تلك الدنان المذهبة فأقيمت بأزاء المجلس الذى كان فيه جالساً فبزُلت كما يفعل فى الحانات ، وجعل يُؤتى بالأنموذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كل منهم ما يشتهيه فيأخذ دناً ويجيء إلى الخمار ويكتال منه بمكيال فى إنائه كما يفعل فى المواخير ويوضع على رأس الحضور أكاليل الآس وما أشبهه من الرياحين .

فشرب الواثق شرباً كثيراً وأمر للخمار بألف دينار ولزوجته بألف دينار ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار .

وحكى الحسين بن الضحاك قال : قال لى الواثق : هل لك فى حانة الشط ؟ فقلت إى والله يا أمير المؤمنين ! فقام إليها فشرب هناك وطرب وما ترك أحداً من الجلساء

---

(١) الماخور بيت الريبة ومن يلى ذلك البيت ويقود اليه (٢) قطربل ضاحية من ضواحى بغداد الى الغرب والشمال منها وهى مأثورة بجودة خمرها ورفاهة حاناتها وقد ذكر الشعراء واستهاموا بذكرها

والمغنين والحشم إلا أمر له بصلة، وكان من الأيام التى سارت أخبارها وذُكرت فى الآفاق

فلما كان من الغد غدوت عليه فقال : أنشدنى يا حسين شيئاً قلته فى يومنا هذا الماضى فأنشدته :

ياحانة الشط قد أكرمت مثوانا	عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تفقدينا دَعابات الإمام ولا	طيب البَطالة إسراراً وإعلانا
ولا تخالُعَنَا فى غير فاحشة	إذا تُطَرِّبُنا الطنبور أحيانا
وسلسل الرطل َعمرو ثم عم بنا السـ	قيا فأَلْحِقَ أخرانا بأولانا
سقيا لعيشك من عيش خصصتُ به	دون الدساكر من لذات دنيانا

قال فأمر الواثق بصلة سنية مجددة واستحسن الشعر وأمر أن يُغَنَّى فيه

ومن ذلك الغور العميق أصيبت الدولة العباسية بالداء الدوىّ والنازلة المُضَنية

والحق أن هذا العصر العباسىّ سما بالعقل الانسانى من طريق العلم والتفكير إلى أبعد الآماد وأقربها من الكمال، فهم قد ترجموا علوم الأمم السالفة وناقشوا مسائلها وابتكروا علوماً سواها فى أقل من خمسين عاماً ، وهم قد تناولوا الأدب العربى فهذبوه وجمّلوه وألبسوه حلة مذهبة اللفظ ضافية الخيال، وهم بحثوا فى الكتاب والسنة وقيدوا منهما مسائل التشريع وابتدعوا من العلوم ما يكشف عن أسرار القرآن الكريم ويوضح مقاصده ويبحث علومه وحقائقه، ولكن ضعف النفس يطغى على قوة العقل فيقسرها كما تشيع آفة النبات فى العود الناضر فتضنيه وتقصفه ثم تسرى منه إلى المرج الخصيب فتفتك به وتذهب بريحه

وكان فى الدولة البررةُ والأتقياء، ولكن التقى والبر يكمنان فى الفتنة العاصفة ويسكنان فى الهيضة الجامحة ويخشيان صولة الألسنة الباغية . وماذا يقول البررة

الأتقياء فى هذا العهد وهم يرون إمام العراق أبا حنيفة ينكر على الشاعر الخليع يحيي بن زياد بعض خلاعته فيجيبه يحي بقوله :

إن كان نُسْكُك لا يتمُّ   بغير شتمى وانتقاصى
فاقعد وقم بى كيف شئـ   ـت مع الأدانى والأقاصى
فلطالما زكيتنى   وأنا المقيم على المعاصى
أيام نأخذها ونعـ   ـطى فى أباريق الرصاص

فيسمع الإمام بعض هذه الأبيات فيبكى إشفاقاً على نفسه من لوثة ذلك الشعر ومن إذاعة هذا السوء ويرسل إلى الشاعر من يستوهب منه نفسه فبعد لأى يهبها له

هذا مثل من احتكام الشر بالخير والفجور بالتقى ونموذج من غلبة صوت المجان والخلعاء على وعظ البررة الأتقياء فأيهم بعد ذلك يقوم على النصح ويهم بالإرشاد ؟ على أن الفقهاء والعلماء نالوا كذلك من طيبات هذه الحياة ونعموا بمناعمها وإن وقف أكثرهم عند حد السائغ البرىء من هذه الحياة . ولكن هذا السائغ البرىء إذا سرى فى رجال الدين قعد بهم عن احتمال البلاء ومعاناة الأذى فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك ما كانوا عليه فى هذا العصر الحافل بالمناعم والمآثم

المرأة العربية فى العراق

كيف كان العباسيون ينظرون إلى المرأة

كان مما قضى الله أن ينشطر البيت الهاشمى فى الدولة العباسية إلى شطرين متنافرين لاتعطفهما عاطفة الدم ولا تأخذهما وشيجة الرحم ، بعد أن أقاما منذ لحق النبى بربه أسرة واحدة لاتزعجها الحوادث ولا تفرقها الخطوب ، وبعد أن بُثت دعوة الخلافة لهما معاً باسم الرضى من آل بيت رسول الله . فلما وَلِى الخلافة أبو العباس السفاح سليل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نهض من بعده أخوه أبو جعفر المنصور ثم نظر المنصور إلى ولده محمد المهدى — لما كان ذلك عرف العلويون وهم سلائل رسول الله وأحفاد على بن أبى طالب أن بنى عمهم الذين قاسموهم احتمال الظلم والخسف فى عهد بنى أمية غلبوهم على أمرهم واستأثروا بالخلافة من دونهم وهم أمسُّ برسول الله رحماً ، وأدناهم من الخلافة يداً ، لأنها رَوِيَت بدمائهم ، ونهضت بأسماء الشهداء من قتلاهم ، فاحتجزوا بأنفسهم وأطالوا النظر فيما عساهم يفعلون ؛ وهكذا انصدع البيت العظيم ونظر بعضه إلى بعض نظر المقهور إلى قاهره والموتور إلى واتره ، ثم خرج إمامهم النفس الزكية محمد بن الحسن ومعه أهل المدينة وجمهور من أهل العراق على الخليفة أبى جعفر ، ولم يكن غير قليل حتى التقى الجيشان ، وبينا رماح الفريقين مشتجرة وسيوفهم متقطرة كان الإمامان محمد بن الحسن وأبو جعفر المنصور يتساجلان الرسائل ويتناظران بالكتب ليكسب كل منهما عطف جمهور المسلمين وانحيازهم إليه ، وفى هذه الكتب يطاول كلاهما صاحبه بما له من فضل السبق وكرم العرق وقوة القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مما فخر به محمد أمومة سيدتى نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله وخديجة أم المؤمنين ، فكان مما أجاب به أبو جعفر « أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغني كلامك ، فإذا جل فخرك بالنساء لتُضِل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعَصَبة والأولياء » ومن ثم أخذ العباسيون يتناولون أمر المرأة بالتهوين وقرابتها بالوهَن وعقدتها بالانحلال كلما سنحت سانحة أو جدّت داعية ، وأخذ شعراؤهم وعلماؤهم وذوو آرائهم يبْعِدون مَدَى مابين الرجل والمرأة كأن الله تعالى لم يجمع بينهما فى كل موطن من كتابه العزيز .

ولما قال مروان بن أبي حفصة شاعر بنيالعباسيين يخاطب العلويين ويمدح العباسيين

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم   حطم المناكب كل يوم زحام

أرضَوْا بما قسم الإله لكم به   ودعوا وراثة كل أصيدَ حام

أنَّى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام

بذل له الرشيد مائة ألف وعشرة آلاف درهم . وما زال شعراء العراق يتداولون هذا المعنى تزلفاً لبنى العباس واستدراراً لأموالهم ويكثرون الأخذ به واللجاج فيه حتى قال محمد بن يحيي التغلبي رداً عليهم :

لم لايكون — وإن ذاك لكائنٌ —   لبنى البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله   والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما   صلى الطليق مخافة الصمصام[1]

ومازالت المرأة مبَثَّ هم أبي جعفر ومثار ألمه فلم تفته حتى آخر عهده من الدنيا وأول عهده من الآخرة حيث كانت آخر وصيته لولده المهدى « وإياك والاستماع إلى مشورة النساء وأظنك ستفعل »

(١) يريد بالطليق العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يظهر اسلامه الا حين رأى جيوش الرسول قاصدة الى مكة والشاعر يري أنه لم يسلم الا خوفا من السيف

ولعل أوضح مظهر من مظاهر إساءة بنى العباس إلى المرأة وتهوينهم من أمرها ودفعهم لها عن مواطن الحياة العامة ما كان من الخليفة المستنصر حين علم بولاية شجرة الدر أمرَ مصر ، فإنه على الرغم من رضاء شعبها بها واطمئنانه لحكمها كتب إلى أمراء المماليك يقول لهم :

« أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها ! أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة » ثم ختم رسالته بإنكار شديد ووعيد وتهديد وتمثل بعد ذلك بقول من قال

النسا ناقِصَات عقل ودينٍ ما رأينا لهن رأياً سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل اللـــه تعـالى من النساء نبيا

ومن كل ذلك نعلم أن بنى العباس كانوا ينظرون إلى المرأة بمؤخر عيونهم حتى لا ينازعهم بنو عمهم زمام الملك باسمها ولا يساموهم بسموها ، وأما تركهم الإماء يصرّفن قياد الملك ويقلبن زمام الرعية ، فما كان ذلك إكباراً للمرأة ولا تنويهاً بشأنها وإنما كان استضعافاً لنزوات النفوس وانغلاباً لحكم الهوى

الصدمة الأولى

طلاق المكرَه

وكان على المرأة أن تستقبل الصدمة بعد الصدمة وتستعد للطمة بعد اللطمة فى ظل هذا العهد ، وكان أول ما ابتدعوه لها من العنت والمكروه يمين البيعة الذى يفرضون فيه على الرجل والسيف مصلت على عنقه أن يحلف بطلاق امرأته على أن يبقى على بيعتهم ولا يحيد عن دولتهم ولا يحول عن نصرتهم ولا يشايع أحداً سواهم

والدين يقسمون هذه اليمين هم ذوو الرأى والجاه من الساسة الكفاة والقادة الحماة والأئمة الهداة ، وقد يكون الرجل منصرفاً بقلبه عنهم ميالا بوده إلى سواهم ، فما عسى أن تكون امرأته ؟ أيفرق بينهما طواعية لإرادة الحكم القاهر وخضوعاً للبيعة المقهورة ؟ وكيف تخضع تلك الشركة التى أحكم الله عقدتها وأوثق آصرتها لريح السياسة ونوازع الأهواء ؟ وهل يقضى على امرأة آمنة فى سربها وادعة فى بيتها أمينة لزوجها ساهرة على أبنائها أن تقصى عن كل ذلك فى غير ذنب ولا جريرة ؟!

ذلك ما كان يراه خلفاء العراق وفقهاء العراق ؛ ولكن صوتاً دوّى من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتظم دويه الشرق والغرب « بأن طلاق المكرَه باطل ويمينه لاغية » ومصدر ذلك الصوت إمام المسلمين وحجة الاسلام مالك ابن أنس ، صدع به بين سطوة السيف وصولة السيف ، ولم يخش فى الحق إلا ولا دمة ولم يرع فى الله لومة لائم ، ودعم هذا الرأى الصارخ بآراء أئمة المسلمين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس وابن الزبير ومن إليهم من أشياخ الصحابة وأعلام الاسلام ، ولقد راع الخليفة الجبارَ أبا جعفر المنصور موقف الامام الأعظم مالك بن أنس فأمر بأن يضرب بالسياط عارى الجسد فشد يده وضرب على جسده وعليها بالسياط حتى خلعت كتفه فما نبا له عزم ولا وهن له رأى ولا حلت له عقدة ولا زاغت منه عقيدة ، بل خرج من المحنة أثبت جناناً وأمضى لساناً وأشد إيماناً وأقوى برهاناً

التجنى على المرأة العربية

قيل إن عبد الملك بن مروان خطب إلى عقيل بن علفة المرى إحدى بناته لأحد بنيه فقال عقيل ، أقبِلْ يا أمير المؤمنين على أن تجنبنى هُجَناء ولدك . فذلك

أعرابى لا شأن له أكثر مما لغيره من سراة أهل البادية وهو مع ذلك لا يعد الهجناء من أبناء الخليفة أكفاء لبناته ، لأن المرأة كانت فى العهد الأموى كما كانت فى العهد الجاهلى أدق مشاعر العزة والكرامة من نفس الرجل ، أما الآن فى هذا العهد العباسى فقد أخذ الرجل العربى يتجنى على المرأة العربية لأنه رأى من غيرها ما بهر لبه وسحر عينيه ، ولأن حميته وعصبيته تردتا تحت أثقال شهوته ، ومن ثم أخذ يعرض بها ويوازن بينها وبين غيرها ، وذاع فى هذا العهد قولهم : من أراد قلة المئونة وخفة النفقة وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر ، واشتهر قول من يقول : عجبت لمن استمتع بالسرارى كيف يتزوج المهائر . وأول من جهر بهذا الصوت فى المفاضلة الشاعر المبيح بشار بن برد ، ومن قوله فى وصف قينة :

وأصفر مثل الزعفران شربته على صوت صفراء الترائب رودِ
كأن أميراً جالساً فى ثيابِها تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثَلَّةٍ سواماً ولم ترفع حِدَاج قَعود[1]
تميت به ألبابنا وقلوبنا مراراً وتحييهن بعد هجود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى صياح جنود وجِّهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا شهود وما ألبابنا بشهود

ومن قوله :

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش ببؤس ولم تركب مطية راع
إذا قلدت أطرافها العود زلزلت قلوباً دعاها للوسواس داع

وعلى أثر هذا الشاعر درج الشعراء من الغض من شأن المرأة العربية والزراية

(١) الثلة جماعة الغنم والسوام الابل الراعية والحداج المحفة فوق البعير والقعود من الابل ما يقتعده الراعى فى كل حاجة

بها والتهوين من أمرها . وإن يكن ذلك عجيباً فأعجب منه أن تعتب المرأة على زوجها شغفه بإحدى القيان وانصرافه عنها فيجيبها فى غير خجل ولا استحياء بمثل ما أجاب به محمد بن بشير الناشىء زوجته ، ثم يذيع هذا الجواب فى الناس فيتغنى به فى بغداد وغير بغداد ، وذلك قوله :

لا تذكرى لوعة إثرى ولا جزعا	ولا تقاسين بعدى الهم والجزعا
بل ائتسى تجدى إن ائتسيتِ أُسًى	بمثل ما قد فُجِعت اليوم قد فُجِعا
ماتصنعين بعينٍ عنك قد طمحَتْ	إلى سواك وقلب عنك قد نَزَعا
إن قُلْتِ قد كنتُ فى خفض وتكرمة	فقد صدقت ولكن ذاك قد نُزِعا
وأى شىء من الدنيا سمعت به	إلا إذا صار فى غاياته انقطعا
ومن يطيق خليعاً عند صبوته	أم من يقوم لمستور إذا خلعا

فهذا الشاعر يصارح امرأته الحرة بانصرافه عنها إلى غيرها من القيان ويأخذها بالتأسى بما أصيب غيرها من جفوة وهجران ، وذلة وهوان ، ثم يلقنها من الحقائق أن المستور إذا خرج إلى الفجور سار طاق العنان لا ترده قوة ولا يثنيه بيان . وفى ذلك كله ما يكشف لك عن صورة هذا العصر ويمثله أوضح تمثيل

الإغراء بالفساد

وكان كل ما حول المرأة يدفع إلى الإثم ويغرى بالفساد ، فقد أصبحت وإذا هى فى ميدان فسيح تغمره اللذات وتدفعه المحرجات ، فعن يمينها الرجال يستحدثون كل يوم أسلوباً من اللهو ، ويستجدون ضروباً من الشهوات ، لا يتورعون لمندية ولا يسكنون إلى روية ، ولا ينزعون عن حمية ، بل ساروا خفافاً تدفعهم المآرب والأوطار ، وتحدوهم الكؤوس والأوتار ، وعن يسارها الجوارى يجررن أذيال اللهو

ويجرين فى مستبق الفساد ويتصدين للرجال بما يستخف ألبابهم من خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وأنشأ الشعراء وهم ألسنة القوم وعنوان أدبهم يغرُون الرجال بالحرائر ويضرّونهم عليهن ويُشككونهم فيما عسى أن يبدينه من عفة وما يتجملن به من إباء ، وكان إمام أولئك الغواة بشار بن برد ، وهو أول من اتهم الحرة فى صيانتها وأمانتها وأطمع الرجال فى إسلاس قيادها بعد إفراط عنادها ، وذلك حيث يقول :

لا يؤيسنَّك من مخدّرة   قول تُغَلِّظُه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة   والشىء يسهل بعد ما جمحا

ثم استن فى غباره أبو نواس الحسن بن هانىء فأتى ببدع من القول فى قوله :

كان الشباب مطية الجهل   ومُحَسِّن الضحكات والهزل

والباعثى والناس قد رقدوا   حتى أزور حليلة البعل

فانظر إلى أى حد مَرِنت الألسنة واطمأنت الأسماع إلى مقال السوء وإشاعة الفاحشة بين الناس ! فإذا تأملت ذلك فأشفق على قلبك أن يذوب أسى ، وأبْقِ على نفسك أن تذهب حسرات ! يا ويْحَ هؤلاء الناس ! أفى دولة إسلامية تَظِلها خلافة إسلامية يقال ذلك القول وليس فى الناس راد ولا دافع ! ! أبلغ من فساد المروءة ورِقَّة الدين أن يتحدث شاعر الخليفة بأنه كان يدرج فى ظلمة الليل إلى حرم البيوت فيسلب ذات الزوج عفتها وفى المسلمين إمام يقيم الحدود ويمنع الحرمات ! ! فأين هذا من العهد الجاهلى الذى يقول قائله :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

أو العهد الإسلامى الذى يقول قائله :

أعمى إذا ما جارتى خرجت   حتى يوارى جارتى الخدر

ما ضر جارى إذ يجاورنى   ألا يكون لبيته ستر

أو العهد الأموى الذى يقول قائله :

قالت — وقلت تحرجى وصلى ... حبل امرىء بوصالكم صبِّ —

صاحب إذاً بعلى ! فقلت لها ... الغدر شىء ليس من ضربى

ثنتان لا أدنو لوصلهما ... عرس الخليل وجارة الجَنب

أما الخليل فلست غادره ... والجار أوصانى به ربى

وراح هؤلاء الخلعاء وأشباههم ينشدون من الأحاديث المبذولة ما يروض المرأة الآبيَة ويستنزل النفوس الرفيعة . وقد حدثوا أن مطيع بن إياس مرَّ بيحيي بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان فقال لهما فيم أنتما ؟ قالا فى قذف المحْصَنات ! قال : أو بقيت فى الأرض محصَنة فتقذفانها ؟ ! فهل هناك إغراء بالحرائر أشد وأشنع من اتهامهن جميعاً فى أعراضهن .

ومن الشُّنع المهلكة للفضيلة المغرية بالرذيلة تلك المقطعات التى تحدث فيها الشعراء بأحاديث التمرد على العفاف وأرسلوها مؤنثة اللفظ سهلة المأخذ فتلقفها المغنون والمغنيات وأنشئوا يرددونها فى المجامع والأندية وبين الستور والخدور ، ومما هو شبيه بذلك قول بشار :

عجبت فطمة من نعتى لها ... هل يجيد النعت مكفوف البصر

بنت عشر وثلاث قسمت ... بين غصن وقضيب وقمر

درة بحرية مكنونة ... مازها التاجر من بين الدرر

أرخت الستر وقالت ويلتا ... من وَلوع الكفِّ رَكّاب الخطر

أُمّتَا بَدّد هذا لُعَبى

. . .   .

أقبلت مغضبَة تضربها ... واعتراها كجُنون مستعر

أيها النوام هبوا ويحكم ... وسلونى اليوم ما طعم السهر

ولم يكن الرجال وحدهم هم المغرين للنساء باقتحام الآثام بل إن الجوارى قلن فى ذلك أشد مما قال الرجال وأغرَين النساء بأكثر مما أغروا ! ولو أن ذلك كله مما لايستجيز القلم ذكره لأثبتنا منه ما يدل على باقيه .

حلول الكارثة

كذلك توالت النُّذُر المؤذِنة بانصباب الخطْب وهبوب العاصفة ، وأى نفس تقدحها تلك المحن ولا تهن ؟ وأى قلب تبلوه تلك الفتن ولا يميل ؟ وأى عزم ترضخه تلك المآثم ولا يُفَلّ ؟ وأى ضمير ترهقه تلك المحارم ولا يأثم ؟ وأى عين تأخذها تلك المخايل ولا تطمح ؟ وأى قدم تدفعها تلك المزالق ولا تزل ؟ وكذلك حقت كلمة الله على الأمة المُترَفة أن يندفع نساؤها فى تيار الزمن ، وكان سبيلهن أن تبرجن كما تبرج الإماء ، وتصدين للرجال كما تصدين ، وبذلن من الزمام كما بذلن إلاَّ قليلاً منهن أمعنّ فى الفرار، فلزمن المنازل، واتخذن المسابح، وانقطعن إلى المحاريب. وكذلك كانت بلاد العراق مسارح للتبرج والتهتك ومعابد للتزهد والتنسك ، وفى كلا الموطنين فقدت المرأة أنوثتها التى تنهج لهـا سبيل الزوجية السعيدة والأمومة الرشيدة ، وكان للبيتين الكبيرين فى هذا العهد — بيت العباسيين وبين العلويين — أثر واضح فى توجيه المرأة إلى ناحية من تينك الناحيتين

بيت بنى العباس

وكان المهدى أول ناشىء فى مهاد الدعة وبين ظلال النعيم من بنى العباس ، وقد ترك له أبوه من ذخر المـال مالا يُنفِدُه سرف ولايفنيه تلف ، فاتسع له بذلك مجال اللهو والترف . ولقـد علمت ماحدثتك من نفاذ جواريه إلى ذات نفسه

وعلى شئون ملكه ، وعلمت ما كان من صرف وجوه الرعية إلى دار الخيزران حتى فشت فيها القالة وأرجفت بها الألسنة وساء عنها الحديث

ولم يكن المهدى فى غيرة أبيه بل كانت الغيرة أضعف نواحيه . سمع أبا العتاهية ينشده مدحه فيمن أنشده من الشعراء فكان أول قصيدته غزلاً واضحاً وتشبيباً صريحاً بفتاة من جوارى قصر الخلافة ، وذلك ما يقول :

ألا ما لسيدتى ما لها أدَلًّا فأحملَ إدلالها
وإلا ففيم تجنت وما جنيت سقى الله أطلالها
ألاَ إن جارية للإما م قد أُسكِن الحسنُ سربالها
مشت بين حور قصار الخُطَا تجاذب فى المشىِ أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب فى اللوم عذالها

فلم يرَ الغضب على وجهه ! بل لقد اختص هذا الشاعر دون غيره من سائر الشعراء بالجزيل من جائزته ، وأشد من ذلك أنه حاول أن يستوهب ابنته عُلَيَّة تلك الجارية ليمنحها الشاعر وكاد يتم ذلك لولا أن توسلت الفتاة بألا يجعلها منحة لهذا الشاعر الدميم المنظر الدانى من الموت ، وشفعت فيها ابنته فبدله الخليفة منها مالاً كثيراً .

ولعلك تقول هى جارية تشرى وتمنح فليس من شأن المهدى أن يستشعر الحفيظة لها والغيرة عليها ، قلت فهلا حق له الغضب من نسبتها إليه وقرن اسمها باسمه ! وأى الخلفاء كان يستمع قول أبى العتاهية : ألا إن ظبياً للخليفة صادنى ثم يتركه وفيه عين تطرف

ودعنا من الجارية : هذه ابنته « البانوقة » أعز الناس عليه وأحبهم إليه وأوحد أهل دهرها أنَقًا وجمالاً ، فهل يجول فى خيال أو يخطر ببال أن يلبسها أبوها ثياب

الجند ويقدمها بين يدى موكبه فى طريقه إلى الحج ، وهى فى نضرة العمر وربيع الشباب ! أو كما يقول الطبرى «كان المهدى فى موكبه يسير وابنته البانوقة تسير بين يديه فى هيئة الفتيان عليها قَباء أسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف وقد رفع ثدياها القباء لنهودهما . . . !

فهل رأيت كيف أبرز المهدى ربيبة الخلافة وسليلة العباس وعقيلة بنى هاشم ونصبها للعيون فى زى يجتذب الأبصار ويستقيد النظار ؟!

ولم تطل حياة البانوقة بل هصرها الموت فى مقتَبل الشباب فأخلت الطريق لأختيها عُلَيَّة والعباسة

فأما علية فكانت شاعرة مغنية جميلة متجملة ، روت لها كتب الأدب كثيراً من الشعر الغنائى ، وفى كثير مما رووا تشبيب بفتيين من مماليك الرشيد يُدعى أحدهما طَلاّ والآخر رشا ، وربما زجرها الرشيد فصحفت اسميهما وجعلت أولهما ظِلاًّ والثانى زينب وهما تصحيف طل ورشا

ومن قولها فى طل

أيا سروة البستان طال تشوقى ... فهل لى إلى «ظل» إليك سبيل
متى يلتقى من ليس يُقْضَى خروجه ... وليس لمن يَهْوَى إليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا ... فيلقى اغتباطاً خُلَّةٌ وخليل

ومن قوله فيه كذلك

سلم على ذاك الغزال ... الأهيف الحُلو الدلال
سلم عليه وقل له ... يا غل ألباب الرجال
خليت جسمى ضاحكا ... وسكنت فى «ظل» الحجال
وبلغتَ منِّى غايةً ... لم أدر فيها ما احتيال

ومن قولها فى رشا :

وجد الفؤاد «بزينبا» وجداً شديداً متعبا
أصبحت من كافى بها أدعى سقيما منصبا
ولقد كنيت عن اسمها عمداً لكيلا تغضبا
وجعلت زينب سترة وكتمت أمراً معجبا
قالت وقد عز الوصا ل ولم أجد لىَ مذهبا
والله لا تلث المودّ ةَ أو تنال الكوكبا

ومن قولها فيه وقد حلف ألا يشرب النبيذ :

قد ثبت الخاتم فى خنصرى إذ جاءنى منك تجنبيكِ
حرّمتُ شرب الراح إذ عفتها فلست فى شىء أعاصيكِ
فلو تطوعت لعوضتنى منه رضاب الريق من فيكِ
فيالها عندى من نعمة لست بها ما عشت أجزيكِ
يا زينباً قد أرّقتْ مقلتى امتعنى الله بحبيّك

وكان الرشيد يستمتع غناءها غير متحرج ، وذكر صاحب الأغانى أنها تغنت وأخوها يُزمر لها بقولها

تحبب فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصّر فان حُدّثتَ أن أخا هوى نجا سالما فارج النجاة من الحب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

وكان فى جبين عُلية سعة غير مستحسنة فاخترعت له العصابة وهى شُقّة من الحرير محلاة بصنوف الجوهر فسترت عيبها وزادتها جمالاً

وأما العباسة فقد قال المؤرخون فى أمر صلتها بجعفر بن يحيى البرمكى ما قالوا ،

وذكروا أن هذه الصلة هى التى حملت الرشيد على قتله جعفراً وإيقاعه بالبرامكة ؛ كذلك كان الناس يعرفون قبل ابن خلدون ، فلما أنشأ هو مقدمة تاريخه جعل هذا القول من أوهام المؤرخين وقال فى سبيل ذلك : « وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ، العباسة بنت محمد المهدى ابن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السَّجَّاد بن على أبى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة ، أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، وقربة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد السرف ومراتع الفواحش ، فأين يُطَلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى الأعاجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش ، وغايته أن جذبت دولتهم بِضَبْعه وضَبْع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف ، وكيف يسوغ للرشيد أن يصهر إلى موالى العجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولجّ فى تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ وإنما نكبَ البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه على سلطانه . . . »

ذلك قول ابن خلدون ، وما كان أولانا بما رآه وأذهبنا فيما ذهب إليه لولا أنه ناقش المؤرخين بمشاعره وبعض عقله ، وراح يعتمد على فخامة اللفظ ورنة الإيقاع

وكل ذلك ليس خليقاً بأن يمحو خبراً ذاع ويقطع حديثاً نمى ، وكان أولى بابن خلدون حين ذكر للعباسة شرف المنصب وعلو النسب أن ينظر نظرة إلى الأم فهى وحدها مرجع ما عليه البنت من علو أو هوان ، بل مرجع ما عليه الولد من بعد همة أو فتور عزيمة ، تلك الأم التى نزع الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم إليها بقوله « أنا ابن العواتك من سُلَيم » . وكل ما يتصل به الأبناء من عظمة البيت وشرف الأسرة ونبل العشيرة إنما يتضاءل فيما يرتضعونه من أمهاتهم من لؤم وخمول . وَمن أم العباسة ؟ أليست مغنية من القيان اشتراها المهدى وكان من أمرها أن أصبحت أم ابنته ؟ أفى قدرة هذه أن تنشىء فتاة تحفظ ما لبيتها العظيم من سمو وجلال !

وإن النفس لا تطمئن لما ذكر ابن خلدون عن نكبة البرامكة ، فان المُثْلة الشنعاء التى مثلها الرشيد بجثمان جعفر من تمزيقه ثلاث فلذات وصلب كل واحدة على باب من أبواب بغداد بعد ما كان من فرط حبه له وتقريبه منه تقريباً لم يكن بين أخوين أليفين — كل ذلك لا يكون إلا حين تتقد الغيرة وتهتاج الحفيظة ويصاب العرض ، وما أظن ما قال القائلون من احتجان الأموال وممالأة بنى على بن أبى طالب إلا تمويهاً للأمر وإبلاغاً للعذر . ولو كان ذلك حقاً لقتل البرامكة على سواء ولم يختص واحداً بالقتل ويترك الباقين رهائن السجن ، بل لكان أولى بالقتل يحيى أبو جعفر لأنه هو الذى استنّ لبنيه سياسة الرفق والمودة للعلويين

وكان بيت المأمون يقوم على العلم والحكمة ، وعلى المرح والدعابة كذلك ، وكانت ابنته خديجة تجدّ فى أثر عمة أبيها علية من إرسال الشعر فى التشبيب وابتكار الغناء والتلحين ، ومن قولها فى خادم من خدم أبيها

بالله قولين لمن ذا الرشا   المثقل الردف الهضيم الحشا

أظرف ما كان إذا ما صحا وأملح الناس إذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له أرسل فيه طائراً مُرْعَشا
يا ليتنى كنت حماماً له أو باشقا يفعل بى ما يشا
لو لبس القوهىّ من رقة أوجعه القوهى أو خدّشا

وحسبنا أن نقف بالقلم عند هذا الحد ونكتفى منه بأن نقول إن نساء بيت بنى العباس قد أخذن مآخذ الرجال من السَّرَف والاندفاع ، وما نريد أن نقول إنهن تجاوزن المرح والدعابة إلى ما وراءهما من العبث والفساد ، وإذا زلت هنالك قدم أو طمحت عين أو لفظ لسان ، فان ذلك لا يصدع البيت ولا يثلم الأسرة إلا أن يقال إن ترف الحضارة ورونق النعيم ، قد رفعا عن تلك البيئة كلفة الدين وخلعا عنها عذار الوقار .

بيت العلويين

أما نساء هذا البيت فقد عكفن على التبتل وأنِسْن بالوحشة وانقطعن عن الناس . وما ظنك بامرأة لا تنتقل من فاجعة إلا إلى فاجعة ، ولا تصير من نازلة إلا إلى نازلة ، قد رضّ الحديد عظام أهلها ، ونهلت السيوف من دمائهم ، وراح وحش الفلا بأشلائهم ، وكأن بينهم وبين كل دولة ثأراً لا تسكن نأمته ، ولا تروى غلته حتى لقد استجاز قُسَماؤهم وبنو عمهم أن يقودوا الطفل من ملعبه إلى مذبحه ، وإليك فاسمع إحدى حوادثهم

قال الطبرى : ذكر أبو يعقوب بن سليمان ، قال : حدثتنى حميدة العطارة — عطارة أبى جعفر — قالت : لما عزم أبو جعفر المنصور على الحج دعا رَيْطة بنت أبى العباس امرأة المهدى — وكان المهدى بالرى قبل شخوص أبى جعفر — فأوصاها بما أراد وعهد إليها ودفع إليها مفاتيح الخزائن وتقدم إليها وأحلفها ووكد

الأيمان ألا تفتح بابْ تلك الخزائن ولا تُطْلع عليها أحداً إلا المهدى ، ولا تَطْلع هى إلا أن يصح عندها موته ، فاذا صح ذلك اجتمعت هى والمهدى وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة ، فلما قدم المهدى من الرى إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح وأخبرته عن المنصور أنه تقدم إليها فيه ألا يفتحه ولا يطلع عليها أحداً حتى يصح عندها موته ، فلما انتهى الى المهدى موت المنصور وولى الخلافة فتح الباب ومعه ريطة فاذا أَزَجٌ كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدة كثيرة ، فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة ودفنوا فيها .

تلك فَعْلَة من فَعَلات أبى جعفر بأبناء عمه ، وهى مَثَل واحد من كثير لا حد له ، وما كان الرشيد بأنعم يداً ، ولا أرق كبداً من جده المنصور ، بل كانت سيوفه الطائشة لحم النار ترتمى يميناً وشمالا على رؤوس الأبرياء من بنى عمه ، حتى لقد كانت سياسته فيهم سياسة إبادة وإفناء . فأين تقر العيون الباكية ، وكيف تسر القلوب الدامية ، وهل يطمئن بالحياة من تنذره كل لحظة بحيف نازل أو كيد محيق . لذلك لم يجد نساء هذا البيت فَرْجة من الهم ولا متسعاً للسرور . ولذلك ائتنسن بالوحشة ، واسترحن إلى الوحدة ، وانعطفن إلى الدين ، حتى لقد نشأ جوارى ذلك البيت على غير ما ينشأ عليه جوارى ذلك العصر . فما كانت الجارية تدخل فى رقهم حتى تتلقاها إحدى نسائهم فترويها الحديث وتعلمها الفرائض .

وقد حدثوا أن فتاة رومية من بيت القياصرة ، وفدت على أبى محمد الحسن العسكرى ، فلما رآها راغبة فى مصاهرة بيت النبوة ، دعا أخته حكيمة فقال : خذيها إلى منزلك فعلميها الفرائض والسنن .

ومما أذكر فى وصف هذين البيتين وعقد الموازنة بينهما قول أبى فراس الحمدانى

من قصيدة يرد بها على ابن سكرة الهاشمى العباسى ، وكان ابن سكرة قد قال قصيدة يمدح فيها بنى العباس ويعقد فيها لواء الفخر عليهم :

خلوا الفخار لَعـلّامين إن سئلوا ... عند السؤال وعمّالين إن علموا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً ... ومن بيوتكم الأوتار والنَّغَم
إذا تلوَا آية غنى إمامكمُ ... « قف بالديار التى لم يعفها القدم »
منكم عُلَيّة أم منهم وهل لكم ... شيخ المغنين إبراهيم أم لهم
ما فى بيوتهم للخمر معتصر ... ولا بيوتهمُ للشر معتصم

اتصال البيتين

وأقام هذا البيت أبْعَدَ ما يكون عن بيت بنى العباس حتى لايجرؤُ أحد من المتصلين بالعباسيين أن يصهرَ إلى علوى خوفاً من الخليفة أن يعرضه على السيف وبقى العلويون فى منعزَل سحيق من الناس ، حتى إذا استُخلف المأمون أراد أن يصل الحبل . ويَرأب الصدع ، ويحسم الشقاق . فدعا بعلى بن موسى الرضا عميد هذا البيت وزعيمه والإمام المرتضى من آل البيت . فقلده ولاية عهد الخلافة ، وزوجه ابنته أم حبيب ، وزوج ابنه محمداً بنته الثانية أم الفضل ، وضرب النقود باسم على وقرن اسمه باسمه على المنابر ، وخلع الشِّعار الأسود الذى اتخذه العباسيون عنوان دولتهم وبدل منه الشِّعار الأخضر الذى اختاره العلويون شارة إمامتهم

وكان من أثر تلك الخطة التى اختطها المأمون أن دوت صيحة بنى العباس بالثورة على الخليفة القائم . واحتشدت جموعهم لقتاله ، وخلعوا عن أعناقهم بيعته ، وولوا عمه ابراهيم بديلا منه . وقد قابل المأمون كل ذلك بجيش من مضائه ودهائه مزج فيه الشدة باللين ، والوعد بالوعيد . ثم ما زال بأهله حتى أخمد جمرتهم ، وأطفأ ثورتهم وإن كانت صدورهم لم تزل محنية على الحقد والحفيظة . وإذا كانت الحالة

السياسية قد صفت مظاهرها ، فإن الحياة الزوجية فى الأسرة المؤتلفة كان يشوبها الكدر ويفسدها الشقاق ، وذلك شأن الزواج الذى لا تأتلف فيه نشأة الزوجين وأسلوب تربيتهما ، وكان الخلاف بين محمد وزوجه أشد مما كان بين أبيه وزوجه ، تريد المرأة أن يبسط لها زوجها بساط النعيم ، ويفسح مجال السرور . ويجلو لعينيها بهجة الملك ، ويأبى الرجل إلا التضيق عليها فى ذلك كله ، وكلاهما فى الطرف القصى من صاحبه . وكثيراً ما كانت تشكوه إلى أبيها المأمون فيقول لها : يابنية أطيعيه واحتمليه فإنه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

القطيعة

على أن الحبل مالبث أن قطع من أحد طرفيه ، فإن علياً مات بعد قليل من زواجه على أثر أكلة عنب قيل إنه مسموم ، وقيل إن امرأته هى التى سمته ، وقيل إن المأمون هو الذى أوحى ذلك إلى ابنته ليعود إليه ود بنى أبيه . ثم قطع الطرف الثانى فى عهد المعتصم حين مات محمد بن على ، ويقول الشيعة إن امرأته كذلك هى التى قتلته لتفضم عقدة الحياة بينها وبينه ، وبذلك عاد البيتان إلى قديم ما كانا عليه من فرقة وشتات . وكان حُلماً فانقضى ، وكان عقداً فانتثر .

فإن الجرح ينفر بعد حين   إذا كان البناء على فساد

الاقتداء

وكان لابد للمرأة أن تأتسى بأحد هذين البيتين : فأما بيت العباس فقد دخل فى زمرته جمهور النساء وأخَصُّهن ذوات الجاه والثراء لأن كل ما فى الحياة من لهو واندفاع ينزع بهن إلى تلك الناحية ، ومن شأن المقلد أن يندفع فى تقليده إلى أبعد ممن يحكيه ، وكذلك خرج النساء إلى مستَبَق المرح ومختَمِ السرور ، وإذا استثنيت

ما يسوقه ابن خلدون من جدل وتأويل فان المؤرخين مجمعون أن النساء قطعن الحوائل وكسرن القيود، ولم يكن سراً حديث ملاعب بغداد ومغانيها ودورها وقصورها وما أقيم فيها من عزف وقصف وما ساد عليها من لهو ولعب، فقد تواصفه شعراء هذا العصر ومؤلفوه، ولو لا عفة القلم لنقلنا الكثير الموفور مما وصفه أبو نواس فى مقدمة ديوانه وما ساقه أصحاب الأغانى وكتاب بغداد والمنظوم والمنثور والعقد الفريد وصاحب بلاغات النساء فى باب المجون وأشباههم من المؤرخين والأدباء وفى كلها من حديث المراح والجماح ما لا نراه إلا قطعاً للصلة بين نساء هذا العصر ونساء العصر القديم، وهل كان يُقدَّرُ للمرأة غير ذلك المقدور وقد تقاسمتها الفتن وتنازعتها الأهواء. ومن البداءة الظاهرة فى تاريخ العراق أن المرأة فى هذا العصر شربت النبيذ. ومن حديث الطبرى أن نساء أقررن بالخمر بين يدى المهدى. ومن رواية الأصمعى أن أعرابية نزلت بغداد فسقوها النبيذ، فلما أخذتها النشوة قالت : أيشرب نساؤكم هذا؟ قالوا نعم، فقالت زنين ورب الكعبة

ومما يزيح لنا النقاب عن مبلغ ما أصاب الأخلاق من وهن وانتكاث قول علىّ بن هشام وهو ممن تصلهم ببيت الخلافة صلة الدم وآصرة المصاهرة : عشقت ألف امرأة ثم انتهيت على ألاَّ أثق بامرأة. أفرأيت كيف لانت مقادة النساء وهانت كرامتهن وأُذيل فضْلُ ما لهن من إباء وحياء حتى استعصى على الخبير بهن أن يثق بواحدة منهن. كذلك أقام الكسائى إمام اللغة والأدب دهرَه غير متزوج لأنه لا يثق بامرأة، وكثير من علماء هذا العصر درجوا ذلك المدرج فلم يتزوجوا

النُّسَّاك

وكان من شأن تلك الحال أن تدفع كثيراً من المستورين والمستورات إلى التحرج منها والانحياز بأنفسهم عن مجالها والابتعاد عن مخالطة من يتصلون بها، وركبوا

فى ذلك الحرج مركباً خشناً لا سواء فيه ولا صفاء، فاستوحشوا من الدنيا وانقطعوا عن الناس وتجافت جنوبهم عن المضاجع وتناءت قلوبهم من المطامع، وهذا الفريق من الناس هو الذى اتخذ أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم غاية مروءة وسنّة مأمومة، ثم ما لبثوا أن تجاوزوا بالنسك أبعد حدوده فحرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله فلبسوا الخَشِن الشائك وأكلوا اليابس القَفار وأنسوا بالظلمة الحالكة واستوطئوا الصلب العسير واندفعوا فى سبيل ذلك كما يندفع المُهر الأرَنّ فاعتسفوا الطريق إلى غايته واقتحموا الصعاب إلى مداها

وكان الزاهدات من النساء أشد اندفاعاً فى الزهد وانقطاعاً إلى العبادة وامتناعاً عن طيبات الحياة من زهاد الرجال، فلا تراهن إلا صائمات قائمات، باكيات والهات، وخليق باندفاع المتبرجات المتبذلات أن يقابله اندفاع المتنسكات المتبتلات، فان حسب المرأة أن تشعر بالموجدة على شىء حتى تفر من كل ما يلابسه أو يحيط به، لذلك كان العراق أحفل بلاد الله بالخيّرات الصالحات اللواتى نهجن طريق الزهد عن فرط علم ورسوخ عقيدة لا عن حماقة وجهالة كما تجد فى كثير ممن عرفن بالنسك والتصوف من أشتات البلاد

ورأس هؤلاء الناسكات رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، وكانت مضرب المثل فى تدله القلب واحتراق الكبد حباً لله وإيثاراً لرضاه، وكانت على تواصل صيامها وقيامها وتتابع زفراتها وتدفق عبراتها تستقل كل ذلك فى جنب الله. قال يوماً شيخ الزُّهاد سفيان الثورى وهو عندها : واحَزَناه! فقالت : لا تكذب! بل قل : واقلة حزناه، ولو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس

ومن حديث خادمتها عبدة بنت أبى شوال — وكانت أشبه الناس بها فى نسكها وعبادتها — : كانت رابعة تصلى الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى

صلاتها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يا نفس كم تنامين ؟! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور . قالت عبدة : وكان هذا دأبها أمد دهرها حتى ماتت ، ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت يا عبدة : لا تؤذنى بموتى أحداً ، وكفنينى فى جبتى هذه — وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون

ومن قولها : ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً . ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم

ومما أثر عنها من الشعر قولها فى ذات الله تعالت ذاته :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت وفاتها رضوان الله عليها سنة خمس وثمانين ومائة

عبدة البصرية

وهى امرأة عكفت على العبادة وأفرطت فى السهر وأسرفت فى البكاء حتى كف بصرها .

سمعت قائلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيراً ! فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب عن الله أشد من عمى العين ، وددت أن الله وهب لى كنه محبته وأنه لم يبق منى جارحة إلا أخذها

وقدم ابن أخ لها من فراق طويل فبشرت به فبكت ، فقيل لها : ما هذا واليوم يوم سرور ! فازدادت بكاء ، ثم قالت : والله ما أجد للسرور فى قلبى مسكناً مع ذكر الآخرة ، ولقد أذكرنى يوم قدومه يوم القدوم على الله ، فمن بين مسرور ومثبور ، ثم أغمى عليها وسقطت

فاطمة بنت عباس ، المفتية ، المدرسة ، الفقيهة ، العابدة ، العالمة ، الصوفية ، المجاهدة

وكل هذه ألقاب خلعها عليها أهل دهرها ، وكلها صفات وصلت بها منتهى حدودها . كانت تصعد المنبر وتعظ النساء . وانتفع بتربيتها والتخرج عليها خلق كثير . وكانت عالمة موفورة العلم فى الفقه والأصول ، وعلى سُنَّتها سارت ابنتها زينب فكانت تعظ النساء وتخطبهن فى حياة أمها وبعد موتها

نخرية بنت عثمان البصرية :

كانت من أسرة عريضة الجاه موفورة الغنى ، ولكن ذلك كله لم يطب لها فخرجت عنه وتزهدت وتنسكت وهجرت الراحة والمنام إلى الصلاة والقيام وقنعت من العيش برغيف وقدح ماء ، فذلك قوتها كل يوم

وكانت أشبه الناس برابعة فى الوحشة من الدنيا والتدلُّه فى ذات الله . هاجرت إلى بيت المقدس وأقامت أربعين عاماً تقف الليل كله بباب الحرم تصلى حتى يفتح الباب فتكون أول داخل وآخر خارج

مُعاذة بنت عبد الله العدوية البصرية :

روى عنها قتادة والجرمى وأيوب وغيرهم ، وكانت إذا شملها النهار قالت لعلِّى أموت اليوم فلا تنام ، وإذا جنَّها الليل قالت لعلِّى أموت الليلة فلا تنام . وكانت إذا اشتد البرد لبست الرِّقاق من الثياب ليمنعها البرد طيب المنام فلا تنام .

ومن قولها : عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظلمة القبور . وكانت تصلى فى اليوم والليلة ستمائة ركعة ، ولم ترفع بصرها إلى السماء أربعين عاماً

وأكثر ما كان الزهد والتنسك فى البصرة ، وتلك كانت شهرتها من قديم عهدها ومن حديث هذا التبذل والتبتل تعلم أن المرأة تمردت على الحياة النِّسوية الكاملة ، فليس فى هؤلاء ولا أولئك مثل واضح للمرأة التى جعلها الله مبعث الود والرحمة للزوج

ومغرس النبل والكمال للولد، بل هى امرأة ثائرة على النظام نافرة من الجماعة، وما لهذا خلق النساء

ومن العجيب أن المرأة المتنسكة انصرفت عن الزواج! كأنها تعلم أن نسكها لا يتم إلا إذا انفردت عن سائر الناس!

ومما رواه صاحب (مصارع العشاق) من حديث فتاة من المتبتلات نظر إليها فتى من جيرتها فهام بها فأومرت فى الزواج منه فاعتذرت. أقول من هذا الحديث تعلم كيف يصرف هذا الصنف من النساء عنانه عن كل ما يتصل بالحياة

وحديث ذلك أن هذا الفتى رأى الفتاة فشغفته حباً فكتم أمرها حتى انحلّ جسمه وأشفى على الموت، ثم كاشف بأمره امرأة من أهله فذهبت الى الفتاة — وكان حديث مرض الفتى قد انتهى إليها — وحدثتها ساعة، ثم قالت لها: يا بنية أبليت شبابك وأفنيت أيامك على هذه الحال التى أنت عليها! قالت يا عمتاه أية حال سوء ترينى عليها؟! قالت لا يا بنية، ولكن مثلك يفرح فى الدنيا ويلذ فيها ببعض ما أحل الله عز وجل لك غير تاركة لطاعة ربك ولا مفارقة لخدمته، فيجمع الله لك بذلك الدارين جميعاً، فوالله ما حرم الله عز وجل على عباده ما أحل لهم من الطيبات . فقالت يا عمتاه، أو هذه الدار دار بقاء لا انقطاع ولا فناء، فتكون الجوارح قد وثقت بذلك، فتجعل لله تعالى شطر همتها وللدنيا شطرها، فتعد الجوارح إذا التعب راحة والكد سلامة؟ أم هذه الدار دار فناء وتلك دار بقاء ومكافأة، والعمل على حسب ذلك، قالت يا بنية لا، ولكن الدنيا دار فناء وانقطاع وليست بباقية على أحد ولا دائمة له ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعات صدقة منه على النفوس تنال فيها ما أحل لها مخافة الشدة عليها . فقالت الجارية: صدقت يا عمتاه، ولكن لله عباد قد علموا وصح فى هممهم شىء من ذخر ذخروه عنده، فجعلوا هذا الشكر

ذخيرة عنده ، إذ لم تـكن الدنيا كاملة لهم ، ولا هم منتقصون شيئاً قدموه لأنفسهم ، وسكنت نفوسهم ورضيت منهم بالصبر على الطاعة لتنال جملة الـكرامة . وإن كلامك ليدلنى على أن تحته علة وهى التى حملتك على مناظرتك لى على مثل هذا ، وقد كنت أظن قبل اليوم فيك أنك تأمرين بالحرص على طاعة الله عز وجل والخدمة له والتقرب إليه بالأعمال الزكية التى تبلغ رضاه وترفع عنده ، فقد أصبحتِ متغيرة عن ذلك العهد الذى كنت أعهدك عليه ، فأخبرينى بما عندك وأوضحى لى ما بقى فى نفسك ، فإن يكن لك جواب أعتك ، وإن يكن فيه حظ تابعتك ، وإن يكن أمراً بعيداً عن الله تعالى وعظتك . قالت يا بنية ! فأنا مخبرتك به ، والذى منعنى من إلقائه عليك هيبتك ، فأما إذا بسطتنى وعلمت أن عندى خبراً وأمرتنى بإلقائه فإن من قصة فلان كذا وكذا . قالت قد ظننت ذلك ، فأبلغيه منى السلام وقولى : أى أخاه ، إنى والله قد وهبت نفسى لمليك يكافىء من أقرضه بالعطايا الجزيلة ، ويعين من انقطع إليه وخدمه بالهمم الرفيعة ، وليس إلى الرجوع بعد الهبة سبيل ، فتوسل إلى مولاك ومولاى بمحابهِ ، وأسرع إليه فى غفران ما قدمت يداك من عمل لم يهبه ولم يرضه ، فهو أول ما يجب عليك أن تسأله وأول ما يجب على أن أعظك به ، فإذا خدمته بقدر ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات الصدور ، فإنه لا يحسن بعبد كان لمولاه عاصياً وعن أمره مولياً ناسياً — أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها . ويلزم نفسه مسئلة الحوائج لعلها داعية له إلى الفتنة إن لم يتداركه الله بكرمه ، فاستنقذ نفسك يا أخى من مهلكات الذنوب فإن له فضلا وسع كل شيء ، ولست مؤيستك من فضله إن رآك متبتلا إليه ، وبما قدّمت يداك معتذراً أن يمن بى عليك ، فإنه الملك الذى يجود على من ولى عنه فـكيف من أقبل اليه ، فلا يشك أنه إذا جاد على من تولى عنه يكون لمن أطاعه مكرماً وإليه وقت

الندامة مسرعاً ، وما أبقيت لك حجة تحتج بها ، فليكن ما أخبرتك به نصب عينيك ، ولا ترادنى فى المسئلة فلا أجيبك ، والسلام .

فلما بلغته مقالتها زاد وجده بها حتى خولط عقله ومات بعلته .

وبعد ، فهذه صورة ما كان عليه نسوة هذا العصر من غلو فى كل شىء ، ولست أعنى بذلك أن نساء العراق لم يبق منهن إلا الجامحة فى أحد هذين الطريقين فما زال فيهن المستورات اللواتى سرن فى الطريق السوى الذى لا اعتساف فيه ولا انحراف ، ولكن هؤلاء لم يكن فى أسلوب حياتهم شىء يستحق التنويه به ولا مزية تستوجب الاشادة بها وهن مع ذلك قُلٌّ فى النساء

المرحلة الثانية

الكساد

الزواج قيد من قيود الاجتماع أو ثقة الله بين الرجال والنساء لتنكسر به حدة الشهوة الطائشة ، وترعوىَ به سورة النفوس المندفعة ، فإذا تم لها ذلك ، سمت الروح وصفت السريرة ، وغلبت الفضيلة ، وسار الناس إلى الكمال فى نهج واضح وأمد قريب . لذلك لا تجد الأمة الغوية تنزع إلى الزواج ، لأنها تريد إثارة الشهوات لا إماتتها ، وإيقاظ الفتن لا إخمادها ، وتضرية النفوس لا ترويضها ، فإذا نزع إليه منها نازع فبقدر ما يقضى نهمة جامحة ، أو يسد مطمعاً مؤتشباً ، ثم يتركها كما يترك اللِّقَى المهمل ، أو يطويها كما يُطوى الثوب اللبيس . وذلك ما كان على أتم وجوهه فى حواضر العراق ، فقد كسد النساء حتى أصبحت المرأة تطلب بالدينار والدينارين فتساق ، وهى تعلم أنها ستسلم حين اللقاء تسليم الوداع . ومما ينبئك عن هذا البوار ما حدث صاحب النجوم الزاهرة ، أن عالماً من علماء بغداد زوج من تسعمائة امرأة !

فهل إذا قيل لك أن فلاناً العالم ذبح فى حياته تسعمائة شاة أفلا يكون ذلك إسرافاً مبيناً . ذلك عالم ليس له إلا ما يقيم أوده مما يوظف لأمثاله من بيت مال المسلمين ، فكم من النساء يمسك الغنى إذا نزل تلك السوق الراكدة ومعه ماله وجاهه

وفى هذه السوق قضى على المطلقات قضاء لا مرد له ، فلا يطلب المطلقة طالب ولا تلمحها نفس راغب ، وقد كان من سنة العرب حتى آخر العهد الأموى ، أن المرأة يخلفها بعد زوجها زوج ومن بعده أزواج ، فلا يتضع لها قدر ، ولا تطمئن لها عزة ، وربما كان آخر أزواجها أسنى شرفاً وأدنى إلى قلوب النساء من أولهم لأن المرأة إنما تخطب لسناء شرفها وعلو بيتها ، ونبل خلالها ، وذلك ما لم ينقصه الطلاق شيئاً . أما الآن وقد شغل الناس بلذاذات الشباب ، واستمرأوا مرعى الجوارى فأقل ما يطلب أبكار العرب بَلْهَ ثيبهن . وإلى تلك الحال أشار الجاحظ فى كتاب القيان إشارة الآسف المحزون ، وإن من أوضح ما يكشف عن رأى الرجل فى المرأة ومنزلتها من نفسه ، وحالها فى بيته قول القائل :

اذهبى قد قضيت منك قضائى وإذا شئت أن تبينى فبينى

ولعل أبلغ فى الإنباء بحالها ، وتجنى الرجل عليها قول أبى الشيص :

إذا لم تكن طرق الهوى لى ذليلة تنكبتها وانحزت للجانب السهل

ومالى أرضى منه بالجور فى الهوى ولى مثله ألف وليس له مثلى

ثم انظر إلى المجاهرة بالغدر ، والمجابهة بمكنون النفس ، والمظاهرة بدخيلة الرأى فى قول القائل :

يارب مثلك فى النساء كثيرة بيضاء قد متعتها بطلاق

لم تدر ما تحت الضلوع وغرها منى تجمل شيمتى وخلاقى

وأعقب ذلك الكساد التفريط فى حقوق المرأة . ومن ذا الذى يضن بالرخيص المبذول ، أو يصون البغيض المملول ؟ ومن التفريط تركها فى غياهب الجهل وطرحها فى مطارح الإهمال ، فلا تزويد بعلم ، ولا تجميل بأدب ، ولا تنشئة على دين . وانقضى بانقضاء القرن الثالث للهجرة عهد المرأة العربية الكاتبة والشاعرة والعالمة والخطيبة ، وقالوا تَعلة لذلك : إن الذى يُعلم المرأة كمن يصقل السيف ليُقتل به ، وقالوا : لاتسق السهم سماً لترميك به يوماً ما ، وقالوا : إذا وصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة عن الجهل ، وقالوا : لا تدع المرأة تضرب صبيا فإنه أعقل منها . وأمثال ذلك ونظائره كثير .

ومن التفريط فى المرأة ترك الحفاظ لها ، والغيرة عليها . ولا أقول ان ذلك كان سَنناً عاماً لأهل العراق ، ولكنه مما فشا فيهم ، وذاع فى أشعارهم وأخبارهم وأثر عن سامّتهم وعامّتهم . وليس بسر ماوضعه أهل هذا البلد من الكنايات وما أرسلوه من النوادر ، وما أذاعوه من الشعر عن المفرّطين فى أعراضهم ، المغضين عن شرف حلائلهم مما استفاضت به الكتب ، وتظاهرت عليه الأخبار .

إباحة المتعة والزواج الموقوت

المتعة عَقد بين الرجل والمرأة صيغته أن يقول الرجل أتمتع أو أستمتع بك ، أو ما إليهما مما اشتق من هذا اللفظ ، فتجيبه المرأة بالقبول ولاتلزمه الشهود . والزواج الموقت صيغة كصيغة الزواج العامة إلا أنه موقوت بوقت ، وقد أحلهما الإسلام معاً باسم المتعة فى السنة الأولى من الهجرة ، ثم حرمهما الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . على أن المسلمين مابرحوا يتمتعون طوال عهد أبى بكر وصدراً من عهد عمر لأن منهم من لم يصله حديث المنع حتى أخذهم عمر بمنعه

وحسر لهم عن حجة تحريمه فكفوا عنه ، وأقاموا بعدها لا يبيحون المتعة إلا فريقاً من الشيعة أباحوها معتمدين على فتوى نسبت إلى علىّ عليه السلام ، وأخرى قال بها ابن عباس رضى الله عنهما . ومازال جمهور المسلمين يتحامون هذا الأسلوب من الزواج حتى أباحها المأمون للمسلمين عامة ، وظاهر غرضه الانحياز إلى على وابن عباس لأنه كان يُولى الشيعة رأيه ويمنحهم قياده ، أما حقيقته على ما أرى فعلاج ذلك الكساد الذى ينذر الأمة بالوبال العاجل والموت المحيق ، على أنه لم يحسم داء ولم يدفع بلاء . لذلك حرمه على الناس اعتداداً بحديث صدع به قاضيه يحي بن أكثم .

آثام الظنون

استنشى الناس فى العهد العباسى نشوة الحضارة وابتَلَوْا سكرة النعيم وسارت المرأة فى أثر الرجل ناهزة بدلوه مسيمة أفياء سرحته ، والمرأة ذات حِسٍّ وثاب ، تدفعها إلى الكمال فتسير إلى أبعد حدوده وتقذف بها إلى النقص فتتردى إلى أعمق وهاده ، فلما أفاق الرجل وأبصر المرأة مرخاة العنان لا يردها زجر ولا يلويها تحرج أنشأ يَلْتَدم حزناً ويستشرى غضباً كأن لم تكن له فى ذلك الخطب يد أيّدة ولا جهد عميق ، على أن مما يملك الرجل التعليل والتأويل ، فهو إذا ضل راح يلتمس المعاذير لهذا الضلال — وربما موّه الرأى فإذا الضلال هدى وإذا الشطط قصد مبين ، لذلك راح يعزو ما تورطت فيه المرأة إلى سوء فطرتها ولؤم غريزتها وقبح دخيلتها وأنها أشرى الشر وأسوأ السوء ، وزور الرجال أحاديث نحلوها رسول الله وفيها أن المرأة قرار اللؤم ودارته ومنبت الشر ونبعته ، كأن لم يكن منها أمه ولا زوجه ولا ابنته التى عدها عديل نفسه ، وادحر الله منها سلالة نبيه ، ونسبوا إلى فلاسفة اليونان والهند تشبيههم المرأة بالصائد الخاتل والحية الرقشاء ؟! ومما زوروه من الحديث : أوثق سلاح ابليس النساء — النساء حبائل الشيطان — شاوروهن وخالفوهن — إياك

ومشاورة النساء فان رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن — النساء شر كله وشر مافيهن كلّه الاستغناء عنهن ، ومما نحلوه صحابة رسول الله دعواهم أن علياً عليه السلام قال « لاتطيعوا النساء على حال . ولا تأمنوهن على مال ، ولاتذروهن يدبرن العيال ، فانهن إن تركن وما يردن أوردن المهالك وأزلن الممالك ، لا دين لهن عند لذاتهن ، ولا عقل لهن عند شهواتهن ، ينسين الخير ويحفظن الشر ، يتهافتن فى البهتان ويتمادين فى الطغيان ويتصدين للشيطان » وقولهم على لسان سَلْمان رضى الله عنه : النساء عِيٌّ وعورة ، فداووا العى بالسكوت ، والعورة بالبيوت . وزعموا أن من الأقدمين من قال لا تدع المرأة تضرب صبياً فانه أعقل منها . ومنهم من قال إذا وصفت المرأة بالعقل فهى غير بعيدة عن الجهل . وأن سقراط رأى امرأة تحمل ناراً فقال : نار تحمل ناراً والحامل شر من المحمول . وقيل له أى السباع شر ؟ فقال المرأة .

كل ذلك وأمثاله لم تقلبه الألسنة إلا فى العهد العباسى ، وقد ظهر اختيان المرأة فى أحط مظاهره على ألسنة الشعراء ، ومن أشنع ماقيل فى ذلك العهد :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزوعاً إذا بانت ، فسوف تبين

وإن هى أعطتك اللِّيان فانها لغيرك من خلانها ستلين

وخنها وإن كانت تفى لك أنها على مدد الأيام سوف تخون

وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

ثم مازال الشعراء يتداركون على ذلك السَّنن الوعر من هُجْر الكلام ومُرِّه حتى جاء أبو العلاء فاتهم المرأة فى ذمتها وأمانتها ودينها وخلقها ! ولم يدع لها لمحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر ، وهو فى ذلك لم يَعْدُ مايقوله أهل هذا العصر فى المرأة ، ونحن هنا نلم بشىء مما قال فى هذا السبيل . قال :

وأظهر من ضوارب فى نعيم　　نعام فى الفلا متهبرات[1]
تَقَيَّد لفظها عن كل بر　　مواش بالحُلِيِّ مقيدات
عَجِلن إلى مساءة مستجير　　لواه فى الخطا متأبرات
وتنقص خيرَها أثراً وفتكا　　صواحب منطق متزيدات
وسَبَّح بالضحى ظَبَيات مَرْدٍ　　بكل عظيمة متمردات[2]
وقد أُغْمِدْن فى أزر ولكن　　سيوف لحاظهن مجردات
ووردت اللباس بِلَون صبغ　　خدود بالشباب موردات

وقال :

قد أهملت للخياط إبرتها　　فصادفت إبرة لعقربها
فهى تُسَقّ الحليب ليلتها　　ولم يكن من لذيذ مشربها

الحجاب

وكان لزاماً بعد أن أوحشت عقيدة الرجل فى المرأة أن يقصيها عن منال العيون ويحجبها عن محال المآثم ، فما لبث أن أرخى عليها الحجب وأسدل دونها الأستار وعفّى على كل أثر ينبىء عنها أو يشعر بوجودها ، وراح يتأول فيما أباح الدين رؤيته منها ، وأكثر من فعل ذلك المتأخرون من فقهاء الحنفية ، وأنت تعلم أن الإسلام أباح للرجل أن يطّلع على وجه المرأة وكفيها وقدميها . فانظر كيف تأولوا فى ذلك ! أما الوجه فقد قال صاحب « الدر » « وتُمنع — المرأة — من كشف الوجه بين الرجال مخافة الفتنة » وأما الكف فقد قالوا : إن ظهره عورة ، كما قالوا : إن باطن القدمين عورة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من الحجاب ، بل إنهم تأولوا كذلك فى صوتها فقالوا : إن نغمتها — حتى فى قراءة القرآن الكريم — عورة . وزاد صاحب

(١) آكلات الهبير — حب الحنظل　　(٢) المرد غصن الأراك

الكافى فقال : لا يجوز للمرأة أن تلبي جهرة لأن صوتها عورة ، بل لقد تجاوز صاحب الفتح كل ذلك إلى الفتوى بفساد صلاة المرأة لو جهرت بالقراءة

كل ذلك مما تأوله فقهاء القرن الخامس وما يليه — باسم الدين — درءًا للفتنة الناشبة وحسما للداء الوبيل ، وما عسى أن يفعل هؤلاء وقد طغى الفساد على المشاعر الفاضلة فلا يعرف من المرأة إلا أنها ذريعة إلى مأرب فاسد وسبيل إلى مطمح وخيم

ولقد أغرق الناس فى حجاب المرأة حتى عِيب عليهم أن يذكروا اسمها ، وبعد أن كان معاوية يتحدث عن نفسه فى مجلس خلافته فيبدأ حديثه بقوله «أنا ابن هند» وبعد أن جاء شاعر بنى أمية يمدح فحل أجمتهم عبد الملك بن مروان بقوله

أنت ابن عائشـــة التى فضلت أروم نسائـها

بعد كل هـذا وأشباهه أصبح اسم المرأة عورة يعاب ذكره وتُتَلَمّس وجوه الكناية عنه ، حتى لقد أراد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى أن يرثى خَوْلة بنت حمدان أخت سيف الدولة فسماها « فَعْلَةَ » ، وهذا قوله :

كأَن فَعْلَةَ لم تملأ موا كبها ديار بكر ولم تَخْلَع ولم تهب

هذا والمتنبى شاعر نشأ بين الأعراب وسار فى مساقهم ورغم ذلك لم يشأ أن يصرح باسم مرثيته وذكر عنها تلك الكناية الغريبة

فانظر إلى هذا النوع من الحجاب كيف ألجأ الشاعر العظيم إلى تلك الكناية الفاسدة ، وأخرجه ذلك المخرج المعيب ؟ ولقد أراد ذلك الشاعر أن يصف ذلك الحجاب فى رثائه والدة سيف الدولة فدعاه دفناً ! وذلك قوله

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

على المدفون قبل الموت صوناً وبعد الموت فى شرف الخلال

وأصبح أولئك الشعراء يعدون الإغراق فى الحجاب فضلاً ومحمدة حتى للبنات الصغيرات ! وانظر إلى الشريف الرضى كيف أراد أن يرثى صغيرة من هؤلاء فقال

يا أرض ما الدّرء فى شخص عصفت به بين الأقارب والعـــواد والخول
أردت أن تحجب البيداء طلعتـــه ألم يكن قبل محجوبا عن المقل ؟

إذاً فقد كتب على المرأة الشريفة فى هذا العهد أن توءد فى الحجاب وتظل فيه حتى تموت

ومن بعد القرن الخامس غابت المرأة العراقية فى الخفاء حتى عن التاريخ ، فأصبح لا يهتم بها ولا يذكرها بخير ولا شر

محنة المرأة

فى فتنة القـــرامطة

فرقة الإباحـــة

القرامطة فريق من غلاة الباطنية ، ولهؤلاء الباطنية حديث طويل يجب أن نجمله إجمالاً ثم نأخذ فيما قصدنا له

لقد ظهر مذهب الباطنية فى القرن الثالث ، والدعاة إليه قوم من أهل فارس أرادوا أن يوهنوا العرب فى دينهم كما أوهنوهم فى قوميتهم ، ولهؤلاء القوم فى دعوتهم حذق ورفق فلم يهاجموا الإسلام طعناً وتجريحاً كما كان يفعل دعاة الأديان حين يدعون المسلمين إلى أديانهم ، بل ظهروا للناس مسلمين لا يعدلون عن الإسلام إلى سواه ، ثم تأولوا كل حقيقة من حقائقه وكل شعيرة من شعائره ، فتأولوا الملائكة والعرش واللوح المحفوظ والبعث والجنة والنار إلى معان بعيدة لا ظواهر لها ، حتى ذات الخالق عز وجل تأولوها إلى قوى الطبيعة ، وتأولوا كذلك الصلاة والصيام

والحج إلى ما ليس من شأنها ، وذهبوا يتصلون بنفوس العامة اتصالا بارعاً دقيقاً . فهم يأتون السُّنى من غير الناحية التى يأتون منها المعتزلى ، ويخاطبون المتصوف من غير هاتين الناحيتين ، ويبيحون للغواة صنوف اللذات ، وجعلوا من حق المرء أن يتزوج أخته وابنته كما يفعل المجوس ، وفى ذلك يقول أحد دعاتهم : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم تكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه ويُنكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنتهِ من الأجنبى » .

ويرى هؤلاء أن الأنبياء قوم أظهرتهم مواهبهم ونفاذ عقولهم وقوة تأثيرهم فى نفوس الناس .

والقرامطة فريق من غلاة الباطنية ، وهم يدينون بالقتل والتدمير وإخافة السبيل أكثر مما يدينون برأى أو ينزعون عن عقيدة ، وكثيراً ما كانوا يُغيرون على الحجيج فى طريقه إلى مكة أو فى طوافه أو عند إفاضته فيقتلون الرجال ويذبحون الأطفال ويستحيون من راق فى أعينهم من النساء .

وزعيم هؤلاء أحمد بن قرمط ، كان من صابئة حرّان ، ثم قدم الكوفة فاجتذب إليه عامتها وأحل لهم الموبقات وخاض بهم الخبائث وقطع بهم السبيل واجتمع اليه خلق كثير . وخلف من بعده خلف كان أشد منه فتكا وأنكى طريقة ، وقد حدثوا عن الحسين بن زكرويه القرمطى أنه ربما أغار على المدينة فقتل رجالها ونساءها وأطفالها وماشيتها وخرج وليس بها عين تطرف .

وكانوا يبيحون للمرأة أن تتزوج بالكثير من الرجال .

ومما حدث الطبرى عن أبى الحسن المتطبب ببغداد قال : جاءتنى امرأة بعد غلبة المكتفى بالله على صاحب الشامة — من زعماء القرامطة — فقالت لى : إنى

أريد أن تعالج شيئاً فى كتفى ، قلت وماهو ؟ قالت جرح ، قلت أنا كَحَّال وهنا امرأة تعالج النساء وتعالج الجراحات فانتظرى مجيئها ، فقعدت ورأيتها مكروبة كئيبة باكية فسألتها عن حالها وقلت ما سبب جراحتك ، قالت ! قصتى تطول . قلت حدثينى بها واصْدُقينى ، وقد خلا من كان عندى ، فقالت : كان لى ابن غاب عنى وطالت غيبته وخلَّف على أَخَوات له فضقت واحتجت واشتقت إليه ، وكان شَخَص إلى ناحية الرّقة فخرجت إلى الموصل وإلى الرقة ،كل ذلك أطلبه وأسأل عنه فلم أُدَل عليه فخرجت عن الرقة فى طلبه فوقعت فى عسكر القرمطى ، فجعلت أطوف وأطلبه ، فبينا أنا كذلك إذ رأيته فتعلقت به ، فقلت ابنى ! فقال أمى ؟ فقلت نعم ! قال ما فعل أخواتى ! قلت بخير ، وشكوت ما نالنا بعده من الضيق ، فمضى بى إلى منزله وجلس بين يدى وجعل يسائلنى عن أخبارنا فخبرته ، ثم قال دعينى من هذا واخبرينى ما دينك ؟ فقلت يا بنى أما تعرفنى ؟! فقال وكيف لا أعرفك ، فقلت ولِمَ تسألنى عن دينى وأنت تعرفنى وتعرف دينى . فقال كل ما كنا فيه باطل ، والدين ما نحن فيه الآن ، فأعظمت ذلك وعجبت منه ، فلما رآنى كذلك خرج وتركنى ، ثم وجّه إلىّ بخبز ولحم وما يصلحنى وقال اطبخيه ، فتركته ولم أمسّه ، ثم عاد فطبخه وأصلح أمر منزله فدق الباب داق فخرج إليه ، فإذا رجل يسأله ويقول له : هذه القادمة عليه تحسن أن تصلح من أمر النساء شيئاً ؟ فسألنى فقلت نعم ، قال امضى معى ، فمضيت فأدخلنى داراً ، وإذا امرأة تطلَق فقعدت بين يديها وجعلت أكلمها فلا تكلمنى ، فقال لى الرجل الذى جاء بى إليها ما عليك من كلامها ، أصلحى أمر هذه ودعى كلامها ، فأقمت حتى ولدت غلاماً وأصلحت من شأنها ، وجعلت أكلمها وأتلطف بها وأقول لها يا هذه لا تحتشمينى فقد وجب حقى عليك ، أخبرينى خبرك وقصتك ومَن والد هذا الصبى ؟ فقالت تسألينى عن أبيه لتطالبيه بشىء يهبه لك ؟ فقلت لا ، ولكن أحب أن أعلم

خبرك . فقالت : إنى امرأة هاشمية — ورفعت رأسها فرأيت أحسن الناس وجهاً — وإن هؤلاء القوم أتونا فذبحوا أبى وأمى وإخوتى وأهلى جميعاً ، ثم أخذنى رئيسهم فأقمت عنده خمسة أيام ، ثم أخرجنى فدفعنى إلى أصحابه فقال طهروها ، فأرادوا قتلى فبكيت ، وكان بين يديه رجل من قواده فقال هبها لى ، فقال خذها فأخذنى ، وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام من أصحابه فسلوا سيوفهم وقالوا لا نسلمها إليك ، إما أن تدفعها إلينا وإلا قتلناها ، وأرادوا قتلى وضجوا فدعاهم رئيسهم القرمطى وسألهم عن خبرهم فخبّروه فقال تكون لكم أربعتكم ، فأخذونى ، فأنا مقيمة معهم أربعتهم ، والله ما أدرى ممن هو هذا الولد منهم .

قالت : فجاء بعد المساء رجل فقالت له هنِّيه فهنأته بالمولود فأعطانى سبيكة فضة وجاء آخر وآخر أهنىء كل واحد منهم فيعطينى سبيكة فضة ، فلما كان فى السحر جاء جماعة مع رجل وبين يديه شمع وعليه ثياب خز تفوح منه رائحة المسك فقالت له هنيه ! فقمت إليه فقلت بيّض الله وجهك والحمد لله الذى رزقك هذا الابن ودعوت له فأعطانى سبيكة فيها ألف درهم ، وبات الرجل فى بيت وبتُّ مع المرأة فى بيت ، فلما أصبحت قلت للمرأة يا هذه ، قد وجب عليك حق ، فالله الله فىَّ ، خلصينى قالت مم أخلصك ؟ فخبرتها خبر ابنى وقلت لها إنى جئت راغبة إليه ، وأنه قال لى كيت وكيت ، وليس فى يدى منه شىء ، ولى بنات ضعاف خلفتهن بأسوأ حال ، فخلصينى من ههنا لأصل إلى بناتى . فقالت : عليك بالرجل الذى جاء آخر القوم فسليه ذلك فإنه يخلصك ، فأقمت يومى إلى أن أمسيت ، فلما انصرف تقدمت إليه ، وقبلت يده ورجله وقلت يا سيدى قد وجب حقى عليك ، وقد أغنانى الله على يديك بما أعطيتنى ، ولى بنات ضعاف فقراء ، فإن أذنت لى أن أمضى فأجيئك ببناتى حتى يخدمنك ويكنّ بين يديك ! فقال وتفعلين ؟ قلت : نعم ! فدعا قوماً من غلمانه ، فقال امضوا

معها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا ثم اتركوها وارجعوا ، فحملونى على دابة ومضوا بى ، قالت فبينما نحن نسير وإذا أنا بابنى يركض وقد كنا سرنا عشرة فراسخ فيما خبرنى به القوم الذين معى ، فلحقنى وقال : يا فاعلة ! زعمت أنك تمضين وتجيئين ببناتك ؟ ! وسلّ سيفه ليضربنى فمنعه القوم فلحقنى طرف السيف فوقع فى كتفى ، وسل القوم سيوفهم فأرادوه فتنحى عنى وساروا بى حتى بلغوا الموضع الذى سماه لهم صاحبهم فتركونى وقَدِمْت .

فالقرامطة إذاً يجذبون قلوب الفتيان والفتيات بما يزينون لهم من ضروب الملذات ومقارنة المآثم ، وكانت سطوتهم مصبوبة على البيت الحرام ومن يلوذون به لأنه مثابة المسلمين ومعقد ألفتهم ومناط وحدتهم ومجتمع كلمتهم . وقد أحرقوا أستار الكعبة وكسروا الحجر الأسود وملأوا زمزم بأجساد القتلى وذبحوا من الحجاج من لا يحصيهم إلا الله ، كل ذلك لينتقموا من الإسلام بالخسف والعسف ما لم يمكن الباطنيون من قمعه بالرفق والحيلة .

وقد أقامت هذه الفرقة المُنيحة المبيحة أمد القرن الرابع ، ثم تآزر عليهم المسلمون فأبادوهم جميعاً .

الحيـــاة الفكرية

للمرأة فى العراق

تنقلت المرأة العربية العراقية فى دورين متباينين :

أما الأول فمداه مائتا عام ، وربما أربى على ذلك قليلا . وفى ذلك العهد لم تقصر عن اللحاق بالرجل فى بعض نواحى العلم والفن وإن لم يؤثر لها فيهما شىء كثير . وقد أسلفت لك شيئاً مما ذاع من دور الخلافة من شعر النساء وغناء النساء ، وما أثر عن نساء العلويين من دراسة علوم الدين ، وكذلك ظهر من النساء من تعلمن الطب ودرسن الفلسفة ، ومن هؤلاء من جاذبن الملحدين أسباب الزيغ والإلحاد وجهرن بذلك كله ، وقد تحدث الطبرى عن نساء أقررن بالزندقة بين يدى المهدى حين سلط سيفه على الزنادقة . وممن أقرّ بها هنالك فاطمة بنت يعقوب ابن الفضل وخديجة امرأته وهما من بيت المهدى ولحمته . وظهر كذلك من درسن كتبها وأقررن بها بين يدى المأمون . ولعل هذا الدور الأول من العهد العباسى أول عهد للناس ظهرت فيه المرأة قاضية تحكم بين الناس باسم الخليفة أمير المؤمنين ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المقتدر ، وكان مرجع الأمر حينذاك إلى امرأتين : السيدة والدة المقتدر وأم موسى القهرمانة ، وكان لهما الرأى الأعلى فيما دق وجل من أمر الخلافة وشئون الحكم ، وقد عرض للسيدة أم المقتدر أن تَرُوض النساء على القضاء فاختارت قهرمانة لهـا تدعى « ثَمَل » وأمرتها أن تجلس بالرصافة للمظالم وتنظر فى كتب الناس يوماً فى كل أسبوع — قال الصابى : فلما رأى الناس ذلك أنكروه واستبشعوه وكثر عيبهم له والطعن فيه ، وجلست أول يوم فلم يكن لها فيه طائل ، ثم جلست فى اليوم الثانى وأحضرت القاضى أبا الحسن فحسّن أمرها وأصلح عليها

وخرجت التوقيعات على سداد فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس إلى ما كانوا قد نفروا منه من صدارتها للقضاء ونظرها فى المظالم

لم يكن إذاً ذلك العهد من حياة المرأة عهد جهالة فاشية ولا تفكير مضطرب ولكنه كان عهد اضطراب فى الخلق والتياث فى السير وانحراف عن قصد السبيل وخروج عن سنَّة المرأة وواجبها الذى ناطه الله بها ووكلها به . ومن خُلق الرجل أن يندفع فى لهوه ما شاء أن يندفع ، فإذا تأثرت المرأة به — وحَقَّ لها أن تتأثر — لها عنها حتى يفيق ، فإن أفاق وكان هناك سبيل إلى ردها عن غايتها دفعها بكلتا يديه وحمَّلها وحدها عاقبة ما آل إليه أمره وأمرها من شر ووبال ، ثم لايزال يسلب منها كل يوم حقاً ويحمّلها كل آن مغرما حتى تصبح هملاً من الأهمال ، أما إذا طال الأمد على اندفاعها وطال إغضاء الرجل عنها حتى يسترخى عنانها وتستحيل طبيعتها ويصلُب على تلك الحال فإن من أعسر الأمور أن يغلبها الرجل على أمرها ويردها عن غايتها . ومهما بدا من الرجل والمرأة من ضروب الرفق والود والمحاسنة والملاينة فإن بينهما صراعاً قد لا يُحِسَّانه ولا يأبهان به ، وغايته انتزاع كليهما ما شاء من حق صاحبه ، ولقد ينزل أحدهما لصاحبه عن بعض حقه أو كله تجملاً وتفضلاً ، فإذا أراد أن يستردّه يوماً لا يجد السبيل إليه ، ثم ينتهى هذا التجمل والتفضل إلى استرخاء واستخذاء وتسليم واستسلام ، وقلَّ من الفريقين من يرضى ببعض الغلبة على غريمه ، بل لا يزال يقسلَّم منه كل يوم ظفراً ويطوقه طوقاً حتى يجعل حياته لغواً ووجوده عدماً وبعد ذلك بعض حقه الذى لا يُدفع عنه أو ينازَع فيه

ونعود إلى المرأة العراقية فى الدولة العباسية فنقول : إنها تنكَّبت الطريق وجاوزت النهج ولكن الرجل لم يمهلها حتى يكون خروجها طبعاً مألوفاً ودستوراً نافذاً وشريعة موضوعة بل عاجلها دون الغاية وردها قبل القرار ، ولا يكفى قرن

وبعض قرن ليكون للمرأة من مُحدَثات الحقوق ما لا سبيل إلى تغييره والعبث به فلم يجد عناء فى سلبها كل ما انتزعته من حق غير مشروع ، ثم لم يقف عند هذا الحد من الغلَب ، بل ذادها عن حقها الذى سوَّغه الله لها فحرَّم تعليمها ، وحرم على نفسه العناية بأمرها ، وأبعدها عن منال العيون والألسنة ، ولم يعد يذكرها إلاَّ بالسوء ولا ينالها إلاَّ بالشر ، وتلك حال المندفع إذا رُدَّ ، والمتغلب إذا قُهر .

وكان من أثر ذلك كله انحطاط تفكيرها وشيوع أمِّيتها ، فلم نعد نسمع فى العراق بالكاتبة ولا الشاعرة ولا المتأدبة ولا المتفقهة إلا ما يشبه الشجرة الناجمة فى الصحراء المقفرة ، وأصبح نسك المتنسكات خَرَفاً وشعوذة ، وأصبحت الأسوة بهن جهلاً وحماقة ، وشاع ذلك الضرب من النسك حتى رُفعت القباب فى كل إقليم وفى كل مدينة وفى كل قرية وكل دسكرة على أمثال هؤلاء ، وكان شيوع ذلك من الفتن التى أصابت الإيمان المتين فى صدور المؤمنين .

المرأة البدوية

أقام أهل بادية العراق على ما كانوا عليه من طبع وخلق وعادة وأدب ، فلم يغير نظام الدولة شيئاً من نظام الجماعة ولا أسلوب الحياة ، ومن أجل ذلك بقيت المرأة الأعرابية على صفاء فطرتها وسناء رأيها وقوة نفسها ونصاعة أدبها ، وكان علماء الأدب ورواة الشعر يذهبون إلى البادية فيستمعون مأثور الكلام من الرجال والنساء ثم يعودون فيُطرفون به الخلفاء ويُناقلون به العلماء ويتحدثون به فى مجالس العلم وفى حلَقات الدروس ؛ وربما جدَّ الخلاف بين أئمة النحو فلا يطمئن لهم رأى حتى يأتوا بأعرابى من البادية فيحتكمون إليه ، لأنه لا يسيغ الخطأ ولا ينطق به ؛ وبقيت البادية مباءة للصحيح من اللغة والفصيح من الأسلوب أمداً طويلاً . وإذا

كانت المرأة الأعرابية قد فقدت فى أخريات هذا العهد بيانها العذب وأسلوبها البديع فلمَا أصاب الأعراب من التمزيق والشتات وما شملهم من الدعة والسكون، فلا مجامع تعقد ولا أسواق تقام ولا حروب تشبّ ولا غارات تثار ، وقد كان لهم من هذه وتلك مجالات فِساح يأتون فيها بالقصائد المفاضة ، والأمثال المرسَلة ، والحكم الجامعة ، والخطب الطوال .

مأثور من أدب النساء

١ — قالت عُلَيَّة بنت المهدى — وهو ما يتغنى به :

مالى أرى الأبصار بى جافيه ... لم تلتفت منى إلى ناحيه

لا ينظرُ الناس إلى المبتَلَى ... وإنما الناس مع العافيه

صحبى سلوا ربكم العافيه ... فقد دهتنى بعدكم داهيه

صارَمَنى من بعدكم سيدى ... فالعين من هجرانه باكيه

٢ — خرج المهدى يتنزه بعيسى باذ ، وقدم هنالك النُّصَيب ومعه ابنته حَجْناء ، فدخل على المهدى وهى معه ، فأنشدته قولها فيه :

رُبَّ عيش ولذة نعيم ... وبهاء بِمُشْرِقِ الميدان

بسط الله فيه أبهى بساط ... من بهار وزاهر الحوذان

ثم من ناضر من العُشُب الأخضر ... تزهى شقائق النعمان

مده الله بالتحاسين حتى ... قُصرت دون طوله العينان

حفلت حافتان حيث تناهى ... بخيام فى العين كالظُّلمان[1]

زينوا وسطها بطارمة مثل ... الثريا يحفها النسران

---

(١) الظلمان : جمع ظليم — ذكر النعام

ثم حَشْوُ الخيام كأمثا ل المها فى صرائم الكثبان
يتجارين فى غناء شجىٍّ «أسعدانى يا نخلتى حلوان»
فبِقصر السلام من سَلَّمَ الله وأبقى ، خليفة الرحمن
ولديه الغزلان بل هن أبهى عنده من شوارد الغزلان
يا له منظراً ويوم سرور شهدت لذتيه كل حَصَان

فأمر لها المهدى بعشرة آلاف درهم .

٣ — حدّث الأصمعى قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : والله إن شربك لاشتفاف[١] ، وإن ضجعتك لانعجاف[٢] ، وإن شِملتك لالتفاف[٣] وإنك لتشبع ليلة تُضَافَ ، وتنام ليلة تخاف ، فقال لها : والله إنكِ لكرواء[٤] الساقين ، قعواء[٥] الفخذين ، مقَّاء[٦] الرفغَين ، مفاضة[٧] الكشحين ، ضيفك جائع ، وشرك شائع .

٤ — لما قُتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه فوجدها تبكى فقال لها : أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لىَ ابنا مثلك لجدير أن يُبكى عليه .

٥ — لما أرسل الأمين على بن عيسى إلى خراسان لقتال المأمون حضر إلى باب زبيدة ليودعها ، فقالت له : يا على ! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى ، وإليه انتهت شفقتى فانى على عبد الله — المأمون — منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى . وإنما ولدى ملك نافس أخاه فى سلطانه . فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد

(١) الاشتفاف : شرب مافي الاناء كله فلا تبقي منه على بقية (٢) الانعجاف : الانصراع تصفه بشدة الوخم (٣) الشملة : الاشتمال على الرداء والالتفاف بالرداء ضعف ومسكنة (٤) الكرواء الدقيقة الساقين (٥) القعواء : المتباعدة ما بين الفخذين (٦) المقاء : الدقيقة الفخذين (٧) المفاضة : المسترخية والكشحان : الخاصرتان .

ولا توهنه بقيد أو غُل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تَعنُف عليه فى السير ، ولا تُساوِه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، وإذا شتمك فاحتمل منه .

٦ — قال الأصمعى : دَفَعتُ فى بعض تطوافى إلى امرأة من ولد ابن هَرْمة[1] فسألتها القِرَى ، فقالت : انى والله مُرْمِلة مُسْنِتةُ ما عندى شىء ، فقلت : أما عندك جَزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت أما ابن هَرْمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، انى لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أُمتِعُ العُوذَ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل[2]

إنى إذا ما البخيل آمنها باتت ضَموراً منى على وَجَل

ووليت فنادت : اربَع أيها الراكب ، فعله والله ذلك أقلَّ عندنا[3] ، فقلت : إلَّا تكونى أوسعتِنا قِرى فقد أوسعتنا جواباً :

٧ — حديث غِربان النوى .

حدّث ابن السراج قال : أخبرنى بعض الإخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لُمَّةً نجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً ، فضجرنا من المقام فى المنازل . فقال بعضنا : لو عزمتم لخرجنا إلى بعض البساتين ! فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينا نحن فيه إذ سمعت ضجة راعتنا ، فقلت للبستانى : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لهن قصة ، فقلت له أنا دون أصحابى : وما هى ؟ قال العِيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابى أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدى

---

(١) أحد الشعراء الأجواد الفرسان (٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول أنه لا يبقيها حتى يعظم فصيلها وكلا شطري البيت كناية عن تكرمه بذبح الابل فلا يبقى منها على شيء .

(٣) تقول هذا التكرم أقل ما عندنا من الطعام .

فصعدت إلى موضع أشرف عليهن وأراهن ولا يريننى ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكالهن ، ومعهن خدم لهن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لهن ومعه خمسة أجزاء من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءًا ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن فى ثوب دَبِيقىٍّ فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها ثم أخذن فى النوح فقالت الأولى:

خَلَس الزمان أعز مختَلَسِ ويد الزمان كثيرة الخُلَس
لله هالكة فُجعت بها ما كان أبعدها من الدنَس
أَتت البشارة والنَّعىُّ بها يا قربَ مأتمها من العُرُس

ثم قالت الثانية:

ذهب الزمان بأنس نفسى عَنوةً وبقيت فرداً ليس لى من مؤنس
أودى بمُلْكَ ولو تُفَادَى نفسها لفديتها بِمَن أُعِزُّ بأنفُس
ظلّت تكلمنى كلاماً مُطمعا لم أسترب فيه بشىء مؤيس
حتى إذا فتر اللسان وأصبحت للموت قد ذبلت ذبول النرجس
وتسهلت منها محاسن وجهها وعلا الأنين تَحُثُّه بتنفُّس
جعل الرجاء مطامعى يأساً كما قطع الرجاء صحيفَةُ المتلمس

ثم قالت الثالثة:

جرت على عهدها الليالى وأُحدِثَت بعدها أمورُ
فاعتضْت باليأس منك صبراً فاعتدل اليأس والسرور
فلست أرجو ولست أخشى ما أحدَثَتْ بعدك الدهور
فليَبلُغ الدهر في مساتي فما عسى جهده يضير

ثم قالت الرابعة :

خدنٌ نفيس من الدنيا فجعت به　　أفضى اليه الردى فى حومة القدر

وَيْحَ المنايا أما تنفك أسهمها　　معلقات بصدر القوس والوتر

يبلى الجديدان والأيام بالية　　والدهر يُبْلِى وتَبلى جدَّة الحجر

ثم قمن فقلن بصوت واحد :

كنا من المساعدة　　نحيا بنفس واحدة

فمات نصف نفسى　　حين ثوى فى الرمس

فما بقائى بعدَهُ　　وشطر نفسى عنده

فهل سمعتم قبلى　　فيمن مضى بمثلى

عاش بنصف رُوح　　فى بدن صحيح

ثم تنحين وقلن لبعض الخدم كم عندك منهن ؟ قال أربعة ، قلن ائت بهن ، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفات فوضع القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت :

لعمرى لقد صاح الغراب ببينهم　　فأوجع قلبى بالحديث الذى يبدى

فقلت له أفصحت لا طرت بعدها　　بريش فهل للقلب ويحك من رد

ثم أخذن واحداً من الغربان فنتفن ريشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه ريش قط ، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدرى ما هى حتى قتلنه ، ثم غنت :

أشاقك والليل مُلْقِى الجِران　　غراب ينوح على غصن بانِ

أَحَصُّ الجناح شديد الصياح　　يبكى بعينين ما تهملانِ

وفى نَعَبَات الغراب اغتراب　　وفى البان بين بعيد التدانى

ثم أخذن الثانى فشددن فى رجليه خيطين وباعدن بينهما وجعلن يقلن له :

أتبكى بلا دمع وتفرق بين الآلاف ! فن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة

ألا يا غراب البين لونك شاحب   وأنت بِلَوعات الفراق جدير
فبيّن لنا ما قلت إذ أنت واقع   وبين لنا ما قلت حين تطير
فان يك حقاً ما تقول فأصبحت   همومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسوراً عديماً لناصر   كما ليس لى من ظالمِىّ نصير

ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيبت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت فَفُعِل به ذلك ، ثم غنت الرابعة :

عشيةَ ما لى حيلة غير أننى   بلقط الحصى والخط فى الدار مولع
أخط وأمحو كل ما قد خططته   بدمعِىَ والغربانُ فى الدار وقع

ثم قالت لأخواتها : أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علقيه برجليه وشدى فى رأسه شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغذاء فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله وأخذن عيدانهن فغنين ، فغنت الأولى :

أبكىَ فراقكمُ عينِى فأرَّقها   إن المحب على الأحباب بكَّاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم   حتى تفانوا وريب الدهر عداء

ثم غنت الثانية :

أما والذى أبكى وأضحك والذى   أمات وأحيا والذى أمرُهُ الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى   أليفين منها لا يَروعهما الذعر

ثم غنت الثالثة :

سأبكى على ما فات منك صبابة   وأندب أيام الأمانى الذواهب

أحين دنا من كنت أرجو دنوّه　　رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً وكنت محسّداً　　فصبراً على مكروه مُرّ العواقب

ثم غنت الرابعة :

سأُفنى بك الأيام حتى يسرنى　　بك الدهر أو تفنى حياتى مع الدهر
عزاء وصبراً أسعدانى على الهوى　　وأحمد ما جرّبت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فعانقتها وبكت وبكين ثم شكون إليها جميع ما كن فيه، ثم أمرن بالصورة فطويت، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلمهن، فرفعت رأسى إليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغربان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته سبباً للكلام لأخبرناك بقصة الغربان، قال فقلت إنما أخبرتكن بالحق، قلن وما الحق فى هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب　　فلذاك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذاك صرت عدو كل غراب . فقلت لهن : فبالذى خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة الصورة لمَاَ خبّرتنّنى بخبركن ! قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا حقه ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة، لا تشرب منا واحدةُ البارد دون صاحبتها فاخترُمت صاحبة الصورة من بيننا، فنحن نصنع فى كل موضع نجتمع فيه مثل الذى رأيت، وأقسمنا أن نقتل فى كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغربان لعلة كانت، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها وبين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تذمهن عندنا وتأمر بقتلهن، فأقل ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به، ولو كان فيك شىء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان، ثم نهضن فمضين ورجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بما رأيت، ثم طلبتهن بعد ذلك فما وقعت لهن على خبر ولا رأيت لهن أثراً

٨ — حديث ناسكة :

حدث التوزى عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والأبلة فإذا أنا بخباء أعراب قد زرعوا ، وإذا أنا بخيمة . وفى الخيمة جارية مجنونة عليها جبةصوف لا تباع ولا تشترى ، فدنوت فسلمت فلم ترد على السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه فمضى ليلهم وهم ساهرونا
حيرتهم محبـــة الله حتى علم النـــاس أن فيهم جنونا
هم ألبـا ذوو عقول ولـكن قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت اليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم ، فتركتها وأتيت بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لآتينها فانظر قصتها فى هذا المطر ، فاذا أنا بالزرع قد غرق واذا هى قائمة نحوه وهى تقول : والذى أسكن قلبى من طرف سحر بصنى محبة اشتياقك إن قلبى ليوقن منك بالرضا ، ثم التفتت إلىّ فقالت يا هذا ! إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل عليه غيثاً فسقاه ، واطلع عليه لحفظه ، فلما دنا حصاده أهلكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت العباد عبادك ، وأرزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عتبة :

إن إلهى لغنى حميـــد لى كل يوم منه رزق جديد
الحمـــد لله الذى لم يزل يفعل بى أكثر مما أريد

٩ — بين القبور

حدث التوّزى عن مصعب قال : قرأت على لوحين فوق قبرين :

أمغطى على بصرى فى الحـــب أم أنت أكمل الناس حسنا

وحديث ألذه هو ممـــا ينعت الناعتون يوزن وزنا

ورأيت امرأة عند القبرين وهى تقول : بأبى ! لم تمتعك الدنيا من لذتها ، ولم تساعدك الأقدار على ماتهوى ، فأوفرتنى كدا ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعرى كيف وجدت مقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لى ثم سلبنى أسرّ ما كنت بك . فقلت لها يا أمه ! ارضى بقضاء الله عز وجل وسلمى لأمره . فقالت : هاه ! نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمنى الله أجرك ولا فتنى بفراقك . فقلت لها من هذا ! فقالت : ابنى وهذه ابنة عمه ، كان مسمى بها ، زفت إليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقضت ، فانصدع قلب ابنى فلحقت روحه روحها ، فدفنتهما فى ساعة واحدة ، فقلت فمن كتب هذا على القبرين ، قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين فحفظتهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت ممن أنت ؟ فقالت فزارية ، قلت ومن قائلهما قالت : كريم ابن كريم ، سخى ابن سخى ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن خارجة يقولها فى امرأته حبيبة بنت أبى جندب الأنصارى ، ثم قالت وهو الذى يقول :

يا منزل الغيث بعد ما قنطوا ويا ولى النعماء والمنن

يكون ما شئت أن يكون وما قدرت ألا يكون لم يكن

يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن

أذكر من جارتى ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسن

ومن حديث يزيدنى مقة ما لحديث الموموق من ثمن

قال فكتبتها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين ما بى من الأحزان

١٠ — حديث أرملة

حدث الأصمعى قال :

سمعت رجلا من تميم يقول : أضللت إبلا فخرجت فى طلبهن ، فمررت بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : إبل لى أضللتها ، فهل عندك شىء من علمها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى ! قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من طريق الاختبار ، ثم تبسمت وتنفست الصعداء ، ثم بكت وأطالت البكاء ، وأنشأت تقول :

إنى وإن عرضت أشياء تضحكنى لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليـــل أحيا لى تذكرَه والصبح يبعث أشجاناً على شجن
وكيف ترقد عين صـــار مؤنسها بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدته كأن صورته الحسناء لم تكن
أبكى عليـــه حنيناً حين أذكره حنين والهـــة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهرى مصيبته وطير النوم عن عينى وأرقنى
والله لا أنس حتى الدهر ما سجعت حمامة أو بكى طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها : هل لك من بعل لا تذم خلائقه وتومن بوائقه ؟ فأطرقت مليا ، ثم أنشأت تقول :

كنا كغصنين فى أصل غذاؤهما ماء الجداول فى روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه دهر يكر بفرحات وترحات

وكان عاهدنى إن خانني زمن ألا يضاجع أنثى بعد مثواتى
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُنَيات
فاصرف عنانك عمن ليس يردعه عن الوفاء خلاب فى التحيات

١١ — حديث فتاة

حدث التوزى عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لى فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر . فقلت لصاحبي : لو ملت بنا إليها فاستسقيناها ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداءك ! اسقينا ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهى تقول :

ألا حيِّ شخصَيْن قاصدَين أراهما أقاما فما إن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما

١٢ — عظة امرأة

حدث محمد بن سلام الجمحى يقول : سمعت رجلا من بنى سليم يقول : هويت امرأة من الحى ، فكنت اتبعها إذا خرجت إلى المسجد فعرفت ذلك منى ، فقالت لى ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هى ؟ قلت مودتك ، قالت : دع ذلك ليوم التغابن[1] . قال فأبكتنى والله فما عدت إليها بعد ذلك

١٣ — ومن حديث أخرى : أن رجلا رأى أعرابية بمكان خال ، والليل منسدل الستر فقال : فقال أما من سبيل إليك ؟ فقالت : أنظر هل يرانا من أحد ! قال ما يرانا إلا الكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فبهت الرجل وانصرف ذاهلا ما يتكلم

(١) يوم التغابن : يوم القيامة . سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار

المرأة الاندلسية

ابتعد العرب بانتقالهم إلى الأندلس عن أكثر ظواهر الحياة العربية الأولى، فهم من مهبطهم الجديد فى خميلة نشر الله عليها من سمات الحسن وآيات الجمال ما يستقيد العين والنفس والقلب والخيال، حتى خيل لشاعرها أن يقول:

يا آل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتتقوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وهم فوق ما نعموا به من زهو الطبيعة وجلوة الأرض، نعموا كذلك بالكثير الموفور من رفاهة العيش وإغداق النعيم، لما آل إليهم من كنوز القوط ولما حوته أرضهم وديارهم من أفانين الثراء وأسباب النعماء.

وقد أصبحوا بهبوطهم تلك البلاد فى نجوة من بلادهم لايصلهم بها إلا الوفود المترددة بين الشرق والغرب على بعد الدار ونأى المزار، وأما جيرانهم الأدنون وخلطاؤهم الأقربون فهم أهل البلاد الصميمون الذين تمتعوا بأوفى نصيب من بلهنية العيش ولذات الحياة وما يقتضيه كل ذلك من سرف وترف ولهو ونعيم.

وعلى الرغم من ذلك سار الأمويون فى الأندلس دهراً طويلا على مسار أسلافهم فى الشرق من الاحتجاز بأنفسهم عن الأمم المغلوبة حفظاً لعصبيتهم ووقاية لأنسابهم وحماية لأخلاقهم أن يوهنها الضعف والانحلال.

وفوق ذلك لبث الأمويون يطفئون الفتن ويخمدون الثورات ويدفعون العدو المتوثب على الثغور أمداً طويلا، فلم يرخوا أعنة اللهو إلى حد بعيد كما كان العباسيون يفعلون، حتى إن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وهو الذى رفع

الأندلس إلى الذروة العليا من عزة الجانب ونضارة الحضارة وطيب العيش ونعيم الحياة لم يصف له من دهره — كما قال — إلا أربع عشرة ليلة ، وقد أقام فى الملك خمسين عاماً .

وبحقٍّ لقد استحظى كثير من ملوك بنى أمية كثيراً من الجوارى الروميات والصقليات وبذلوا لهن أفضل مايتمنين من رغيد العيش وبعيد الآمال ، ولكنهن لم يُفسدن العنصر العربى لأنهن لم يكن بالكثرة التى تمكنهن من غلبة الرجال على أمرهم وإفساد مابينهم وبين نسائهم ، ولم يكنّ من خلابة الفارسيات ولباقتهن واحتوائهن على ألباب الرجال فى قليل ولا كثير ، ذلك إلى أنهن لم يكنّ يعتمدن — كما كان الفارسيات يعتمدن — على فريق من الرجال يشدون أزرهن ، ويُنهجون طريقهن ، ويستثمرون نفوذهن فى بيوت الخلفاء والوزراء .

لم يكن أولئك الجوارى إذاً سوى وسائل لهو وأدوات زينة ، لأنهن لم يملكن من أسباب اقتياد الرجال إلا الجمال وحده ، وللمتعة بالجمال حد ينتهى إليه ، ومهما بلغت فإن غايتها إلى ابتذال وملال .

ولم يكن ذلك العهد الأموى بالأندلس عهد لذات مجترَحَة ولا حرمات مباحة ولم يظهر من الناس من دأبُه قذف المحصنات ، وإشاعة الفاحشة بين الناس كما كان يفعل ذلك شعراء الفرس وأدباؤهم فى بغداد لتوهين الأعراض وإباحة الحرمات

وكان للدين سلطان مبين على الأعلياء والدهماء ، ومما زاد الروح الدينى استطارة واستفاضة تلك الشوكة العظيمة التى كان المسلمون يقابلون بها عدوان الجلالقة وغيرهم من المترصدين للعرب والإسلام .

من أجل ذلك لم يكن طريق المرأة الأندلسية شائكا وعراً ولا ضيقاً حرجاً ، بل كان واضحاً قصداً وصراطاً قويماً ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، فلم يكن بدعاً أن تسير

لغايتها من إسعاد الأسرة ، وإصلاح البيت ، وتزكية النشء ، وأن يسير الرجل لغايته من ولاية الأمر ورياضة العمل وحياطة البلاد ، ثم يلتقيان فى معاهد العلم ومجامع الأدب .

ولقد كان النساء يخرجن إلى المسجد الجامع فى قرطبة وإلى سواه من معاهد العلم فيجلسن فى حلقات الدروس متنقبات محتشمات .

وقد ظهر من النساء عدد لا كفاء له فى فنون من العلم والأدب . وكان لهن فى تلك الحياة العاملة شأن نابه وشأو بعيد ، ومنهن الشواعر ، والكاتبات ، والمحدّثات ، والمتفقهات ، والمعلمات ، والمتطببات .

وكان نساء الخلفاء والعظماء فى غنى عن الأطباء بالطبيبات ، وعن المعلمين بالمعلمات

عصر عظمة المرأة الأندلسية

امتد عصر عظمة المرأة الأندلسية حتى جاوز القرن الرابع إلى بعض ما يليه ، وفى خلال ذلك الأمد الطويل كانت المرأة مضرب المثل فى جلال الخلق وقوة النفس ووفرة العلم والبعد عن هَنات الاجتماع ؛ وعلى الرغم من مسايرتها للرجل فى طلب العلم والبلوغ فى تحصيله لا تجد فيها زهواً ولا غروراً ، ولا اندفاعاً فيما ليس من حقها من شئون الحياة ، وما أثر عنها فى طوَال ذلك العهد أنها عاقرت النبيذ أو تبذلت فى مجالس الرجال كما أثر ذلك عن المرأة العراقية فى زهو الدولة العباسية . ذلك لأن الروح العربى والعصبية العربية كانا غالبين على كل مظاهر الحياة فى ذلك العهد ، حتى لقد احتفظت بطون العرب وعشائرها فى تلك البلاد بوحدتها وجامعتها كأنها لم تزل فى تهامة ونجد من أرجاء الصحراء ، فكانت قيس تقيم فى موطن وتميم فى آخر وتجيبُ فى ثالث ، وبين الرجل وعشيرته عقدة جامعة ورباط وثيق .

القرن الخامس

بدأت الأندلس فى خلال المائة الخامسة تميد بأعباء الفتن السياسية، فقد سقطت الدولة الأموية ونهضت فى أثرها دويلات المتغلبين من ملوك الطوائف وكان من شأن ذلك التمزيق الذى فرق أوصال الملك وشتت شمل الأمة أن يخمد جذوة العلم ويوهن قوة الأدب، لو لا أن الرعيل الأول من أولئك المتغلبين كانوا من أئمة العلم وفرسان الأدب وأعيان البيان، فأعانوا العلماء والأدباء والشعراء بكل ما فى طوقهم من معونة وما فى خزائنهم من مال، وتنافسوا فى استيزار الكتاب والشعراء واستزارة الأدباء والعلماء حتى أثمرت المواهب الناضرة وانحسرت العقول النيرة عن أفضل نتاج من العلم والأدب

وفى هذا العصر وما يليه تَسَامَى خيال أهل الأندلس إلى أبعد ما يتسامى إليه خيال الشاعر الساحر، وجاءوا بالمقطعات النادرة والموشحات المبتكرة، وبزوا أهل العراق فى وصف ما امتازت به بلادهم من مظاهر الطبيعة المشرقة، ومسارح الحياة المتألقة، فلا تجد أوصف منهم للرياض والغياض والبحار والأنهار والمنازه والملاعب والطير والهديل والسَّحَر والأصيل

وبدأت المرأة الأندلسية فى هذا العصر تنكشف وتأخذ فيما أخذ الناس فيه من لهو ونعيم، وجاذبت الرجل فنون المَرَح وقالت ما لم يكن يقوله غيره من تغزل وتخالع وتفرُّق وتواصل، ومناقضة ومماجنة، ومناقلة ومداعبة، ولكن الأخلاق بقيت فى جملتها مستمسكة فى هذا الجيل من النساء

وأول من سنت للنساء سنة الانكشاف والاستخفاف وَلَّادة بنت المستكفى بالله سليلة بيت المُلك الأموى فى الأندلس

وكان أبوها المستكفى بقية ملوك بنى أمية، ولم يمهله الزمن حتى غُلب على أمره

وقتل، ومن بعدهِ حَسَرت ولّادة حجابها واتخذت قصرها مهبطاً رحبا ومنتدى خصيباً يأوى إليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والشعراء، ومن هؤلاء الوزراء والعلماء والقضاة والولاة، فيتجاذبون الأدب ويتساجلون الشعر ويتناولون النقد ويتناقلون الحديث ، وما كانت ولّادة بمقصرة عن السابقين المُجلّين من هؤلاء، بل إنها لتُعَد من مبتكرات الشعر الأندلسى الحديث. وكم من الشعراء من يحسن أن يقول قول ولادة:

ودَّعَ الصبر محب ودعك ذائعٌ من سره ما استودعك

يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيّعك

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قِصَر الليل معك

بل كم منهم من يحسن أن يقول قولها للوزير الكاتب الشاعر ابن زيدون.

ترقَّب إذا جَن الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكتَمَ للسر

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُح وبالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يسر

وعلى رغم ما أقدمت عليه «ولّادة» من هتك حجابها وتسنية أبوابها. يقول المؤرخون إنها لم تَنْزِع إلى ريبة أو تنزلق إلى مأثمة، وأقامت حياتها لم تتزوج، وعُمِّرَت طويلاً، وتوفيت فى العام الرابع والثمانين من المائة الخامسة.

ولولادة صواحب نشأن على أدبها وانكشفن على سُنَّتها وأخذن فى الدعابة مثل مأخذها، ومن هؤلاء «مهجة القرطبية» وكانت أشد اندفاعاً فى مجانة الشعر من أستاذتها. وقد حاولنا أن نرى لها شعراً بريئاً لنثبته فلم نجد، على أن شعر ولادة لم يكن فى متناوَل النساء لأن فيه فحولة وجزالة، وهو بشعر الرجال أشبه، ولكن أستاذة شواعر الأندلس التى أوردتهن من الشعر العذب الرقيق منهلا ندى النفحات

صفى النسمات ، هى حَمْدة — أو حمدونة — بنت زياد وأصلها من (وادى آش) أحد أعمال الأندلس ، وهى أسبق من ولادة عهداً وأبعد منها مدى ، وفى شعرها أنوثة كاملة وسهولة نادرة وخيال بعيد .

ومن شعرها ، وكانت قد خرجت إلى النهر مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت ، قالت :

أباح الدمع أسرارى بوادى له فى الحسن آثار بَوَادِ
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرف بكل واد
ومن بين الظباء مَهاة أنس سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظ تُرَقّده لأمر وذاك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالسواد

فهذا هو الشعر النسوى الذى تسيغه نفوس النساء ويتأثرن به ويقتفين سبيله . ومن أفضل ما يسمو إليه الخيال قولها تصف الرملة من أراضى وادى آش :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنَّى واجهتنا فيحميها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فهذا الأسلوب من الشعر لا تجد أرق ولا أدق ولا أنغم فى الآذان ولا أندى على الأكباد منه

ومن أبلغ ما وصلت إليه صناعة الشعر قولها :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وليس لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حُماَتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمُ من مقلتيك وأدمعى ومن نَفَسى بالسيف والسيل والنار

ولحمدة أخت تدعى « زينب » وكانت شاعرة كأختها .

ومن أستاذات هذا العصر فى الشعر مريم بنت يعقوب الأنصارى ، وكانت تغدو على بيوت أشبيلية فتعلم نساءها الشعر والأدب ، ولها بينهن منزلة محمودة لسمو أدبها وفرط حشمتها ، وكان عظماء البلد يجلونها ويدنونها لعراقة أثرها ونبالة خلقها وحسن بديهتها . وقد أرسل إليها المهدى صاحب أشبيلية دنانير فى قرطاس كتب فيه :

مالى بشكر الذى أوليتِ من قِبَل لو أننى حزت نطق اللسن فى الخِلَل
يا فذة الظرف فى هذا الزمان ويا وحيدة العصر فى الإخلاص والعمل
أشبهت مريما العذراء فى ورع وفقت خنساء فى الأشعار والمثل

فأجابته الشاعرة :

من ذا يجاريك فى قول وفى عمل وقد بدرت إلى فضلٍ ولم تُسَل
مالى بشكر الذى نظّمت فى عنقى من اللآلى وما أوليت — من قبل
لله أخلاقك الغر التى سقيت ماء الفرات فرقت رقة الغزل
من كان والده العضب المهند لم يلد من النسل غير البيض والأسل

وكان نساء غرناطة أعرف بالشعر ومعانيه وصوغه وصقله من غيرهن ، وقد ذكر صاحب نفح الطيب أنهنّ كن يُدْعَين العربيات لسيرهن على سَنَنَ العرب فى صفاء الشعر وفصاحة المعانى ، فبدل أن يقال هذه غرناطية كان يقال هى عربية .

ومن شواعرها الصادحات نزهون الغرناطية ، وكانت من أعذب النساء طبعاً وأروحهنّ نفساً وأرفقهن بالشعر وأضربهن للأمثال ، ولها فى مجالس الوزراء والأمراء آثرُ منزلة وأعز مكان ، وكانت فوق ما عرفت به من رقة الطبع وسماحة الذوق من أحسن الناس بديهة وأحضرهم جواباً .

ومما حدثوا عنها أنها كانت تقرأ ذات مرة على أبى بكر المخزومى الأعمى فدخل عليهما أبو بكر الكِنْدى فقال يخاطب المخزومى : لو كنت تبصر مَنْ تجالسه : وأُفحم . فلم يستطع أن يتمم البيت الذى بدأه فقالت نزهون :

لغدوت أخرس من خلاخله
البـدر يطلع من أزرّته والغصن يمرح فى غلائله

ومن شعرها الذى أرخت لنفسها العذار فيه :

لله در الليـالى ما أحيسنَها وما أحيسنَ منها ليـلةَ الأحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غَفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء ليناظرها — وكان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء — فلما رأته قالت إنك اليوم كبقرة بنى إسرائيل ، صفراء فاقع لونها ، ولـكن لا تسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثار ابن قزمان واندفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه فى بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به .

وفى هذا العصر ذاع الشعر النسوىّ القَصصى ، فكان مما يألفه النساء أن يبسطن حديثهن شعراً ، وقد يكون ذلك فى حفل حاشد أو بين يدى ملك أو فى رسالة إلى أب أو صديق ، ومن أمثلة ذلك رسالة بثينة بنت المعتمد إلى أبيها .

وحديث ذلك أن المعتمد بن عباد بعد أن دفع به القضاء من قصره الأغنّ

فى أشبيلية إلى سجن ابن تاشفين فى أغمات — من أعمال فاس — سُبِيَت ابنته بثينة فيمن سبي من الجوارى وبيعت من أحد تجار أشبيلية على أنها جارية ، فوهبها التاجر ابنه ، فلما رأت الجِد من الأمر كشفت القناع عن نسبها الملكى ، وقالت لولد التاجر لا أحل لك إلا بعقد يجيزه أبى ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها إلى أبيها وانتظار جوابه فكان الذى كتبته هذه الأبيات :

اسمع كلامى واستمع لمقالتى ... فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت وأننى ... بنت لملك من بنى عباد
مَلِك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبى فى ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازنى امرؤ ... لم يأت فى إعجاله بسداد
إذ باعنى بيع العبيد فضمنى ... من صاننى إلا من الأنكاد
وأرادنى لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بنى الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك فى الرضا ... ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتى تعرفنى به ... إن كان ممن يُرتجى لودادى
وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والإسعاد

فلما بلغته مقالة ابنته وهو ثاو فى غياهب سجنه ، مطوق فى قيوده وأغلاله أدركه شىء من حسن العزاء لنجاتها ، وأشهد على نفسه بعقد زواجها ، وكتب إليها يهنئها ويتسلى بحسن عاقبة الزمان فيها ، وكتب آخر رسالته :

بُنيتى كونى به بَرَّةً ... فقد قضى الدهر بإسعافه

وشبيه بهذا الأسلوب من الشعر النسوى الأندلسى شكوى الشاعرة الشِّلْبِيَّة

إلى السلطان يعقوب المنصور صاحب غرناطة من عماله على بلدها ، فقد كتبت هذه الشكوى وألقتها على مُصَلَّى المنصور يوم الجمعة ، فلما قضى صلاته فضها وقرأها فاذا فيها :

قد آن أن تبكى العيون الآبية	ولقد أرى أن الحجارة باكية
يا قاصد المصر الذى يُرجى به	— إن قدَّر الرحمن — رفع كراهية
ناد الأمير إذا وقفت ببابه	يا راعياً إن الرعية فانية
أرسلتها هملا ولا مرعى لها	وتركتها نهب السباع العادية
شِلْبٌ كَلَا شِلبٍ وكانت جنة	فأعادها الطاغون ناراً حامية
حافوا وما خافوا عقوبة ربهم	والله لا تخفى عليه خافية

فأنصف المرأة بعدله ووصلها بجزيل ماله .

وحديث الأدب النسوىّ فى هذا العصر حديث شيِّق أليف ، وإذا قلت لك أن هناك أستاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة الأدب ويروينهن الشعر فلا تظن هؤلاء على قدر محدود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل ، ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأفذاذ رجاله على سواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخريج . ومن أمثلة هؤلاء الشاعرة العروضية إحدى فتيات بَلَنْسية فقد تلقت النحو واللغة على الإمام أبى المطرف وعبد الرحمن بن غلبون ، ثم فاقته فيهما وبزت علماء عصرها فى العروض ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد والأمالى للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً ، وقد قرأهما عليها العالم يوسف بن نجاح وأخذ عنها علم العروض .

ولقد يمتد بنا الطريق إذا استوفينا جانب الأدب من حياة المرأة الأندلسية وهو أنضر جوانبها وأبهج حلاها فى هذا العصر ، فبحسبنا أن ندل عليه ونكتفى بهذا الطرف اليسير من حديثه .

ولقد حدثتك حديث الخلق النسوى فى هذا العصر وأنه بقى فى جملته مستمسكا مستقيما وإن كانت عوامل الضعف لبثت تغالبه من كل جانب وتحيط به من كل سبيل .

ومهّد انقسام الأندلس وقيام ملوك الطوائف للعدو المترصد سبيل الظفر بالمنقسمين ، وبدأت النازلة الفادحة والخطب الجلل يهويان على البلاد فى أخريات هذا القرن منذ استباح الأذفونش طليطلة من صاحبها ابن ذى النون عام ٤٧٨ ، ومن هنالك أخذ العدو المتغلب يجد فى شططه وأخذ سلك البلاد ينتثر من وَسَطه كما قال الشاعر ابن العسال :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها الا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف المقام مع الحياة فى سفط

وكذلك بدأت دعائم الخلق تهتز وأنشأ صرح الحياة يميد.

بعد القرن الخامس

ألا مسعد منجدٌ ذو فِطَن ... يُبَكّى بدمع معين هَتِنِ

جزيرةُ أندلس قَدْ سَطَت ... عليها غوائل حقد الزمن

ويندب أطلالهــا آسفاً ... ويرثى من الشعر ما وهن

ويبكى اليتامى ويبكى الأيامى ... ويحكى الحمام ذوات الشجن

ويشكو الى الله شكوى شج ... ويدعوه فى السر ثم العلن

وكان رباطاً لأهل الهدى ... فعادت مناطاً لأهل الوثن

وكان معاذاً لأهل التقى ... فصارت ملاذاً لمن لم يَدِنِ

وكانت شَجى فى حلوق العدى ... فأضحت لهم ما لها محتجن

ذلك بعض ما رثيت به الأندلس فى القرن السادس الهجرى أى قبل أن يحل بها القضاء الأخير بقرنين كاملين ، فقد أخذ العدو يوغل فى قلب البلاد وأخذ أولئك المتملكون يلقون إليه بالمودة ، ويتقدمون إليه بالجزى ، ويستعين به بعضهم على بعض ، ومن لم يستعن به استصرخ المغيرين من ملوك فاس ، وترك أهل الأندلس تلك القوى المتدافعة تتناجز على البلاد وراحوا يلهون ويلعبون ، ويشربون ويطربون ، ويسحبون فى مضمار الخلاعة أرساناً ، ويستبقون فى ميدان البطالة فرساناً ، واستشرفوا الى الجوارى الروميات والمهاجرات المغربيات يَتَسَرَّونهن ويستولدونهن ، وغادروا المرأة الأندلسية تندفع فيما هم مندفعون ، وتشرب بالكأس التى يشربون ، فالتاثت الأخلاق ، واضطربت الأعراق ، وفترت الحمية ، وضاع الحِفَاظ .

وبدأوا يتشبهون بالفرنجة فيما أمكنهم أن يتشبهوا به ، وماذا يملك الضعيف الذليل من التشبه بالقوى العزيز ؟ ليس إلا المظاهر الجذابة من زى يبسطه عليه ، أو كلمات من لغته يتقرب بها إليه ، أو إنحاء بالطعن على أهل ملته وعشيرته ، أو لجاج فى البراءة من آداب دينه وأمته ، فأما الدأب فى العمل والإمعان فى الثبات والتضحية فى الواجب ، وفناء الواحد فى عز الجماعة ، والطاعة فى غير ذل ، والبذل فى غير رياء ، فذلك ما لا يملك الضعيف أن يتشبه بالقوى فيه ، لأن النفس واهنة ، والعقل مضطرب ، والقلب رخو مريض . وكذلك فعل الأندلسيون فقد غلوا فى التشبه بالفرنج فى عامة مظاهرهم ، فلبسوا برانسهم ، واعتمروا قلانسهم ، ومضغوا ألفاظهم ، وتزوجوا الدنيات من نسائهم .

وأول من سن طريق الغلو فى اقتفاء الهين القريب من مظاهر الفرنجة محمد ابن سعد بن مردنيش الجذامى أمير شرقىّ الأندلس فى منتصف القرن السادس ،

وذلك ما يقوله عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة »

وآثر « ابن مردنيش » زى النصارى من الملابس والسلاح واللُّجُم والسروج، وكلف بلسانهم، وألجأه الخروج عن الجماعة والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى ومصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم، وصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك قشتالة على الأخرى، فكان يبذل لهم فى السنة خمسين ألفاً من المثاقيل، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات !! وحانات للخمور! وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت فى بلاده المغارم وثقلت؛ وأما رسوم الأعراس والملاهى فحالاتها عجيبة.

حدث بعض المؤرخين عن الثقة قال: كنت بجيان مع الوزير أبى جعفر الوقشى فوصل إليه رجل من أهل مرسية كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش وعن سيرته، فقال الرجل أخبرك بما رأيت من جور عماله وظلمهم، وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن كان له بنظر شاطبة ضُيَيْعة يعيش بها، وكان لازمها أكثر من فائدتها، فأعطى لازمها حتى افتقر، وفر إلى مرسية، وكان أمر ابن مردنيش أن من فر من الرعية أمام العدو أخذ ماله للمخزن، قال الرجل فلما رحلت إلى مرسية فاراً عن وطنى خدمت الناس فى البنيان، فاجتمع لى مثقالان سعديان، فبينما أنا أمشى فى السوق وإذا بقوم من أهل بلدى شاطبة، فسألتهم عن أولادى وزوجتى، فقالوا إنهم فى عافية، ففرحت فرحاً عظيما وسألتهم عن الضيعة، فقالوا إنها باقية عند أولادك، فقلت لهم عسى أن تبيتوا عندى الليلة، فاشتريت لحماً وشراباً وضربنا دفاً، فلما كان عند الصباح اذا بنقر عنيف بالباب،

فقلت من أنت ! قال أنا الطرقون الذى بيده قبالة اللهو ، وهى متفقة بيدى ، وأنتم ضربتم البارحة الدف فأعطنا حق العرس الذى عملت ، فقلت والله ما كان لى عرس فأخذت وسجنت حتى افتديت بمثقال من الذى خدمت به وجئت إلى الدار فقيل له أن فلاناً وصل من شاطبة الساعة فمشيت لأسأله عن الدار وعن قرابتى وعرفته بالأمر الذى طرأ علىّ وبكيت طول ليلتى وبكى معى ، فلما كان من الغد إذا بناقر بالباب ، فخرجت فإذا أنا برجل فقال أنا صاحب المواريث أعلمنا أنكم بكيتم البارحة وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غنى وأخذتم كل ما ترك ، فقلت والله ما بكيت إلا نفسى ، فكذبنى وحملنى إلى السجن فدفعت المثقال الثانى »

ذلك بعض ما يحدث فى عهد التياث الحكم واضطرابه وانحراف الأمر وانقلابه على أن ما أصاب البلاد من فتنة ناشبة وشر وبيل لم يثن هؤلاء الناس عن الاندفاع فى اللهو إلى قرار الهاوية

وأصبح الاندماج فى الفرنج بالمظاهر والعادات وبالملق والرياء سنة مسلوكة وطبعاً مألوفاً عند أهل الأندلس ، ومن العجب أن عالماً ضليعاً كعزيز بن خطاب يُوَلَّى مُلك مُرسية لعلمه وفضله ، فاذا جاءه الخطباء ليخطبوا له بالملك استمع أقوالهم حاسر الرأس كما كان يعمل ملوك الفرنج .

وكان ابن هود ملك الأندلس يسير فى أشتات بلاده حاسر الرأس ، وعلى هذا السبيل كان بنو الأحمر ينهجون .

وكان علماء الأندلس يرخون ذوائبهم ، ولم يسمح لغيرهم أن يفعل ذلك سيراً على سنة الفرنج فى رجال الأدب والفنون منهم .

ولبس النساء المناطق الأسبانيولية ! واعتمرن القبعات الأسبانيولية ، وخرج الفتيات حواسر الرءوس كواشف الصدور على مثال الأسبان ، وفى كثير من الصور

التى خلفها الأندلسيون منقورة فى الجدران أو منقوشة فى الزجاج أو مرقومة على الثياب أو محفوظة فى الكتب والرقاع ما يدل على انسياق المرأة الأندلسية فى مساق الأسبانية وانخلاعها عن تقاليد السلف الصالح من الأمهات الأندلسيات.

ورغم ما تورطت فيه امرأة هذا العصر من تهور واندفاع لم تكن بنجوة من العلم والأدب، فقد نالت منهما أكثر مما نالت فى عصورها السالفة، ولكن ويل للأمة من المرأة العالمة التى لا خلق لها ولا دين.

وأستاذة الشواعر فى العصر الأندلسى الأخير حفصة بنت الحاج الركونية، وهى إحدى شريفات غرناطة الظاهرات بوفر المال وفرط الجمال وما تزدان به المجالس من حسن المساجلة ولهو الحديث. ولذلك لم يكن بدعاً أن يغدو فى أثرها كثير من نساء هذا العصر، وكانت نشأتها فى القرن السادس وعمرت إلى منتهاه

وكانت حفصة فى شعرها متدفعة غير متجملة ولا محتشمة، لأنها إنما تحكى صورة هذا العصر وتنزع عن غايته، وكانت تذيع هذا الشعر فيرويه الناس عنها وهم بها معجبون

ومن شعرها ما كتبته إلى فتى اشتهرت به :

أزورك أم تزور فإن قلبي ... إلى ما تشتهى أبداً يميل
فثغرى مَورد عذب زلال ... وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أمّلت أن تظما وتضحى ... إذا وافى اليك بى المقيل
فعجّل بالجواب فما جميل ... إباؤك عن بثينة يا جميل

ومن شعرها وقد أرسلته إلى الأمير أبى سعيد فى مجلس أنسه :

زائر قد أتى بجيد الغزال ... مطلع تحت جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت ... ورضاب يفوق بنت الدوالى

يفضح الوردَ ما حوى منه خد ... وكذا الثغـــر فاضح للآلى

ما ترى فى دخوله بعد إذن ... أو تراه لعارض فى انفصال

ومن شعرها :

سلام يُفَتِّح زهر الكما ... م وينطق بالشدو ورق الغصون

على نازح قد ثوى فى الحشا ... وإن كان تحرم منه الجفون

فلا تحسبوا العبـــد ينساكم ... فذلك والله ما لا يكون

ومِمَّا نسب إليها :

أغار عليك من عينى رقيبى ... ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أنى خبأتك فى عيونى ... إلى يوم القيامة ما كفانى

وعلى سَنَن ما أسلفت لك سارت المرأة الأندلسية بعد القرن السادس جامحة النفس مخلوعة العذار ، ووهنت منها قوة الدين وخَفَرُ الحياء ، وهدمت ركن البيت ومزقت آصرة الأسرة ، وهى الغارس والأمة الغَرس ، والبانى والأمة البناء ، فإذا صرفها اللهو واللعب عما وكلها الله به من حياطة خَلقه ورعاية حقه فما هى إلا نهلة بعد نهلة حتى ينتقض البناء ، ويستحكم البلاء وترتفع صيحة القضاء ، وتعصف عاصفة الفناء « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وكذلك حقت كلمة الله على أهل الأندلس حين ائتمنهم الله على أرضه فلم يرعوا أمانته ، واسترعاهم دينه فلم يوفوه رعايته ، وأحلهم دار النعمة فابطرتهم ، وسوغ لهم صبابة الآمل فاسكرتهم ، وكان ما أصابهم عبرة العبر ومُثلةَ المُثلات ، فقد ظهر عليهم العدو المستبيح فمزق رجالهم واستعبد نساءهم وصرع بين أعينهم أطفالهم

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت نساهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهما ... كما تُفَرَّق أرواح وأبدان
وطَفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هى ياقوت ومَرجان
يقودها العِلجُ للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

أثارة من أدب النساء فى الأندلس

١ — كتبت ولّادة بنت المستكفى إلى ابن زيدون :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق ... سبيل فيشكو كل صب بما لقى
تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ... ولا الصبر من رق التشوق معتق
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا ... بكل سكوب هاطل الودق مغدق

٢ — للشاعرة الغسانية البجانية — وهى من شواعر المائة الرابعة :

عهدتهمُ والعيش فى ظل وصلهم ... أنيق وروض الوصل أخضر فينان
ليالىَ سعد ، لا يُخاف على الهوى ... عتاب،ولا يُخشى على الوصل هجران

٣ — سألت امرأة من شريفات غرناطة حفصة الركونية تذكاراً تكتبه بخطها فكتبت اليها :

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم ... غضى جفونك عما خطه قلمى
تصفحيه بلحظ الود منعمة ... لا تحفلى بردىء الخط والكلم

٤ — كتبت حسانة التميمية إلى الحَكَم بن الناصر :

أنت الإمام الذى انقاد الأنام له ... وملكته مقاليد النهى الأمم
لا شىء أخشى إذا ما كنت لى كنفا ... آوى اليه ولا يعرونىَ العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً ... حتى تذل اليك العُرب والعجم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ووظف لها عطاء كريماً وكتب إلى عاملة على (البيرة) — من أعمال الأندلس — فجهزها بجهاز حسن

وكان الحكم قد كتب إلى والى البيرة بتحرير أملا كها وردها إليها — ولا نعلم كيف نزعت منها — واتفق أن عوجل الحكم بالموت فلم يقض الوالى لها بشيء فلما طال مطاله لها ذهبت إلى ابنه الخليفة عبد الرحمن فلما مثلت بين يديه انتسبت إليه ، فعرفها وعرف أباها ثم أنشدت :

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى ... على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعى إنه خير جابر ... ويمنعنى من ذى الظلامة جابر
فإنى وأبنائى بقبضة كفه ... كذى الريش أضحى فى مخالب كاسر
جدير لمثلى أن يقال مروعةً ... لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاه الحيا ، لو كان حياً لما اعتدى ... علىَّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يمناه جابر ... لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر

ثم بسطت أمرها وأرته خط أبيه فقبله وقال : لقد تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأى الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك ووقع بمثل توقيع والده ، وأجازها بجائزة كريمة فشكرت له صنيعه بقصيدة جاء فيها :

ابن الهشامين خير الناس مأثرة ... وخير منتجَع يوماً لرُوّاد
إن هز يوم الوغى أثناء صعدته ... روّى أنابيبها من صِرف فرصاد
قل للإمام أيا خير الورى نسباً ... مقابلا بين آباء وأجداد
جوّدت طبعى ولم ترض الظلامة لى ... نهاك فضل ثناء رائح غاد
فإن أقمتُ ففى نعماك عاطفة ... وإن رحلت فقد زودتنى زادى

٥ — لأم العَلاء بنت يوسف الحِجَارِيّة[1] — من شواعر المائة الخامسة :

كل ما يصدر منكم حسنُ ... وبعلياكمْ تحلّى الزمن
تعطِف العين على منظركم ... وبذكراكم تَلَذّ الأذن
من يعيش دونكُم فى عمره ... فهو فى نيل الأمانى يغبن

٦ — وخطبها رجل أشيب فكتبت إليه تقول :

الشيب لا يُخدَع فيه الصبى ... بحيلة فاسمع إلى نصحى
فلا تكن أجهل مَن فى الورى ... يبيت فى الجهل كما يضحى

٧ — وقالت تعتذر :

افهم مطارح أقوالى وما حكمت ... به الشواهد واعذرنى ولا تلمِ
ولا تكلنى إلى عذر أبيّنه ... شر المعاذير ما يحتاج للكلم
وكل ماخلته من زلة فبما ... أصبحت فى ثقة من ذلك الكرم

٨ — لأم السعد بنت عصام الحِمْيرية القرطبية :

آخ الرجال من الأبا ... عِد والأقاربَ لا تقارب
إنّ الأقارب كالعقا ... رب أو أشد من العقارب

٩ — للسيدة أَمَة العزيز :

لحاظكم تجرحنا فى الحشا ... ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا ... فما الذى أوجب جرح الصدود

١٠ — حكى الوزير أبو المغيرة بن حزم قال :

نادمت يوماً المنصور بن أبى عامر فى مُنية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين روضة وغدير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العشىّ . ورفرف غراب

(١) نسبة الي وادي الحجارة من أعمال الأندلس .

الغروب الدجوجىّ ، وأسبل الليل جنحه ، وتقلد السماك رمحه ، وهم النسر بالطيران ، وعام فى الأفق زورق الزّبرقان(١) ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا ملاء الارتياح ، وللدجن فوقنا ملاء مضروب ، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أُنس القلوب ، وقالت :

قدم الليل عند ستر النهار ... وبدا البدر مثل نصف السوار

فكأن النهار صفحة خدّ ... وكأن الظلام خط عِذار

وكأن الكئوس جامد ماء ... وكأن المدام ذائب نار

نظرى قد جنى علىّ ذنوباً ... كيف مما جنته عينى اعتذارى

يا لقومى تعجبوا من غزال ... جائر فى محبتى وهو جارى

ليت لو كان لى إليه سبيل ... فأقضّى من الهوى أوطارى

١١ — كتب أبو عامر بن نيق إلى هند جارية أبى محمد بن عبد الله بن مَسلمة الشاطبى يدعوها بهذين البيتين :

يا هند هل لك فى زيارة فتية ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل

سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا ... نغمات عودك فى الثقيل الأول

فكتبت فى ظهر رقعته :

يا سيداً حاز العلا عن سادة ... شم الأنوف من الطراز الأول

حسبى من الإسراع نحوك إننى ... كنت الجواب مع الرسول المقبل

١٢ — كان عباد المعتضد كلفاً بجاريته العَبّادية فسهر ليلة وهى نائمة فقال :

تنام ومدنفها يسهر ... وتصبر عنه ولا يصبر

فانتبهت له وأجابته :

لئن دام هذا وهذا له ... سيهلك وجداً ولا يشعر

---

(١) الزبرقان البدر

١٣ — لحفصة الركونية تذم عبيدها :

يا رب إنى من عبيدى على جمر الغضا ما فيهمُ من نجيب
إما جهول أبلهٌ متعبٌ أو فطن من كيده لا يجيب

١٤ — لزينب المُرِّيَّة :

يأيها الراكب الغادى لطِيَّتِه عَرِّج أنبيك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم إلاّ ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبي رضاه وأنى فى مسرته ووده آخرَ الأيام أجتهد

١٥ — دعا أمير المؤمنين الناصر بحجامه ليفصده ، واتُّخِذَت لذلك الأهبة فى البهو الكبير من قصر الزهراء ، فحين تقدم الحجام من سيده أطل عليه زرزور من حديقة القصر فتغنى بهذين البيتين :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقاً فيه محيا العالمينا

فنظر الناصر إلى الطائر وأصغى إليه وقد ملكه العجَب والإعجاب وسأل عمن أوحى إليه ذلك الوحى البديع فقيل إنها السيدة الجليلة مرجانة زوج أمير المؤمنين وأم ولى عهده فضوعف سروره وإعجابه .

* * *

أما بعد فتلك طائفة من الأدب النسوى بالأندلس ؛ وهو على ما به من ظرف ورقة لم يبلغ مبلغ نظيره فى العراق ، لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية فى البادية ، والجارية الفارسية فى الحاضرة ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ، فالمرأة البدوية كانت كأفضل النساء صفاء فى الطبع ، ونقاء فى النفس ، وسمواً فى الخاطر وجلالاً فى الغرض ، وروعة فى الأسلوب ، وكانت الجارية الفارسية على

ما علمت مَثار الفتنة والسحر في الغناء والشعر ، وكان للناس فى العراق من هذين المورديْن مَعِين غدِق ، وروض خصيب ، وهما من وسائل الرقة التى امتزجت بالأدب العربى فى العراق .

أما المرأة الأندلسية فمع مجاذبتها للرجل كثيراً من أطراف العلم والأدب لم تأت منه بما يعلو عن مألوف الكلام إلا قليلاً ، لأنَ للأدب النسوى جمالاً خاصاً تنقله المرأة عن المرأة لا عن الرجل ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة فى العراق عنيت برواية الأدب النسوى فى البادية وأخذت كفايتها منه وعمدت إلى ما أخذت فصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء النعيم لأتت بأطيب الثمرات وأنداها على القلوب والأكباد .

ولا أعلم كيف غفل متأدبو الأندلس ومؤلفوهم عن استقصاء شعر نسائهم والعناية بتقييده ، فهم يسمون وَلّادة بنت المستكفى : عُلَيّة الأندلس ، ويدْعون حمدة بنت زياد خنساء المغرب ، وهم مع ذلك لايذكرون لكليهما إلا القليل المحدود من الشعر الذى أثارته مناسبة أو قيدته حادثة ، وقد لا يكون هذا من أفضل ما قالت الشاعرة ، بل قد يكون فوق ذلك غَثّا تافهاً لا شأن له ، فى حين أنهم حين دعوا ابن هانىء المغربى متنبىء الغرب وابن خفاجة الأندلسى صَنوبرى الأندلس ذكروا لها ما جلّ ودق من شعرهما حتى لم يعدُ شىء منه خافياً عن أحد ، والعجب أن هذا القليل المحدود الذى نقل عن نساء الأندلس كان يتناوله مؤلفو القوم بعضهم عن بعض ، فليس هناك تبسط فى النقل ولا استفاضة فى البحث عن شعر النساء ، فهل لم تأت « خنساء المغرب » بأكثر من بضعة عشر بيتاً من الشعر أكثرها مداعبات ومطارحات ، وهل لم تأت « علية الأندلس » بأكثر من عشرين بيتاً بعضها منسوب لغيرها ! أقول ولعل ذلك لأن أكثر الكتب التى

وصلتنا عن حياة الأندلس ألف بعد سقوط ذلك البلد العظيم ، وألف فى بلاد خفى فيها أدب المرأة عن منال الأقلام ، فلم يحفل كتابها بها ، ولعلنا حين نجدّ فى البحث عن ذخائر الكتب المودعة قصر الاسكوريال فى « مدريد » نجد منها كثيراً مما كتبه الأندلسيون عن أنفسهم وصوروا فيه حقيقة شأنهم ومثال حضارتهم ، فذلك أشفى للنفس وأروى للحقيقة . وعسى أن نصل قريباً بعون الله وتوفيقه إلى تلك الغاية المنشودة فنكون قد سددنا ثغرة من الأدب العربى لا تزال حتى اليوم عميقة الأثر بعيدة القرار . والله ولى التوفيق .



المرأة المغربيـة

وحسبنا فى هذا الجزء من الكتاب أن نتكلم عن المرأة فى المغرب الأقصى. أما المغرب الأدنى فحديث المرأة فيه طويل مستفيض لايتسع له هـذا الجزء، وموعدنا به الجزء الرابع مع المرأة المصرية، لأن بين نساء هذا القطر من بلاد المغرب وبين نساء مصر البدويات صلة الجوار وعقدة النسب وألفة الطباع والعادات.

وإذا تحدثنا عن المغرب الأقصى فإنما نتحدث عن قطر كان فيما سلف من الدهر لا تجف دماؤه المتفجرة ولا تخمد نيرانه المضطرمة، له فى كل آونة عرش يقوم ومصرع يترصد، قد اختلف فيه كل ما فيه اختلافاً بيناً، ففيه البربر والعرب، وفيه الخوارج والرافضة، وفيه الواتر والموتور، وفيه الدخيل والأصيل، ذلك شأنه وتلك حاله منـذ بسط الإسلام ظله عليه.

وكان شأن المرأة فى عامة تلك البلاد كشأنها فى كل الشعوب المستبسلة المتبدية، لهـا قوة عاملة وصفة مستقلة وحياة ظاهرة، وما كان يَضير الرجل هنالك أن ينتسب إلى أمه. ومن الذين ظهروا فى هذه البلاد ممن انتسبوا إلى أمهاتهم ابن غانية القائد المتغلب المتملك، وابن عائشة العالم الشاعر، وبنو «سوط النساء» القادة الأبطال. وما كان عجيباً أن تسود المرأة وتحكم، وقديماً تكلم ابن خلدون عن امرأة تسمى «شمس» كان لها عشرة أبناء استفحل أمرهم وتفاقم سلطانهم وألقوا إليها أزمة الأمر وروّضوا لهـا حكم البلاد فلم يكن هنالك دفع أو استنكار.

وكانت تأنف ويؤنف لها وتغار ويغار عليها إلى أن تؤثر ورود الموت على الذل والهوان. ومما رواه ابن خلدون أن جيش بنى مرين قصد إلى السلطان أبى زيان ابن عثمان وأخذ ينتقص أطراف بلاده ولم يقو جيشه عليه، قال ابن خلدون فبينا

السلطان وأخوه أبو حمو جالسان فى بعض خاصتهما دخلت دعد قهرمانة القصر وقالت : يقول لكم حظايا قصركم وبنات زيّان حُرمكم : ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسَفَّ عدوكم لالتهامكم، ولم يبق إلا فواق ناقة لمصارعكم، فأريحونا معرة السبى وقرِّبونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة فى الذل عذاب والوجود بعدكم عدم. فالتفت أبو حمو إلى أخيه السلطان فقال قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن ؟ فقال ياموسى أرجئنى ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسراً . فقال إلىّ تخرج مع قومنا إلى عدونا فتستميت ويقضى الله ما شاء ! فغضب أبو حمو وأنكر عليه تأخير ذلك، وقال إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا . وقام عنه مغضباً وأجهش السلطان بالبكاء فبينما القوم فى مجلسهم هذا دخل حَرَسى فقال : « إن السلطان يوسف بن يعقوب — ملك بنى مرين — قتل الساعة. وبمقتله انفض جيشه وذهب عن أبى زيان وعن قومه ما كانوا فيه من خوف وإشفاق . ولولا ذلك لذبحوا نساءهم وبناتهم وحظاياهم بقياً على العرض وأنفة من العار .

ومن أعجب ما يؤثر من غضبة الشعب للمرأة وأنفته لها وثورته من أجلها ، أن السلطان عبد الحق بن أبى سعيد المرينى لما لم يجد غناءً فى وزرائه استعان برجلين من اليهود، فكانت رياستهما محنة على الأمة وبلاء على العباد، فلم يدعا وسيلة من الخسف والأذى فى الأرواح والأموال إلا اتخذاها فى غير حرج ولا هوادة ، وصبرت الأمة لهذه النازلة وراضت نفوسها على احتمال تلك الكارثة ، وكان احتمالها بالغاً وصبرها جميلا ، كان ذلك حتى ذاع فى البلاد أن أحد اليهوديين قبض على امرأة شريفة وأمر بضربها بين يديه ! وهنا اشتعلت النار الخابية واستطارت النفوس الوادعة وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض ، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى ، وهنالك ائتمروا فيما بينهم على الفتك باليهود وثل

عرش المستعين بهم وولوا من بينهم أحد أشرافهم وبايعوه على الثبات معه حتى الموت وأحاطوا باليهود فأفنوهم واقتسموا أموالهم واستعان عبد الحق بجنده فتنكروا له وخالفوا عليه ، وقتل اليهودى الضارب طعناً بالرمح بين يديه ، وسيق هو إلى فاس وطيف به مشهراً فى أحيائها وأزقتها وتكاثرت عليه الجموع تريد أن تفترسه ، ثم قدم إلى مصرعه فقتل وانتهى بموته عهد وانقرض بنهايته ملك وسلطان .

الأسرة المتنبئة

لم يكن أهل المغرب الأقصى سراعاً إلى الإسلام حين دعوا إليه فلم يسلموا إلا بعد لأى خيفة من السيف ، ثم ارتد جمهورهم عن الدين الحنيف ، ثم أثابوا أخيراً إليه ، وفى عهد تلك الفتنة المضطربة نهض رجل فى أحد أعمال فاس يدعى طريفاً أبا صبيح فادعى النبوة ، واقتبس دينه من مآرب الناس وشهواتهم فاتبعه جمهور من الغوغاء ، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان ، ثم أعقبه ابنه فزاد على ما قال أبوه سخفاً من القول دعاه قرآناً وجعل من سوره سورة الديك وسورة الحُمُر وأمثال تلك الأضاحيك . وعلى ذلك السَّنن تتابع سلالة ذلك الرجل ، فليس منهم إلا من زعم أنه نبي يوحَى إليه حتى انتهى أمرهم إلى أبي غفير محمد بن معاذ ابن اليسع بن طريف فازداد خطره واستفحل أمره ، وأباح للرجل أن يتزوج بمن وصلت إليه يده من النساء بالغاً ما بلغ ، وأخذ يبث شياطينه فى البلاد ، يقتلون رجالها ويسبون نساءها ، وشأنه فى ذلك شأن القرامطة ، وهؤلاء وأولئك كانوا يتبعون سيرة آل فرعون فى بنى إسرائيل من قتل الرجال واستحياء النساء . وفى انسياق الغوغاء فى مساق أبي غفير يقول بعض شعراء فاس :

قفى قبل التفرق واخبرينا وقولى واخبرى خبراً يقينا
وهذى أمة هلكوا وضلوا وغاروا لا سقوا مما سقينا
يقولون النبي أبو غفير فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت على آثار خيلهم ربينا
ستعلم أهل تامسنا إذا ما أتوا يوم القيامة مقطعينا
هنالك يونس وبنى أبيه يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين ، واشتد نكايته بالبربر حتى غلب على قطر كبير من البلاد وتملكه وأقام فى هذا الملك تسعة وعشرين عاماً . ومن بعده جاء ابنه أبو الأنصار فتأثر سنة أبية وازداد من إراقة الدماء، واستباحة النساء، وعظمت هيبته واشتد سلطانه، ودانت له قبائل المغرب. وكذلك كان ابنه من بعده أبو منصور عيسى فملك البلاد وجاءه ملوكها يسجدون عنوة له .

وقد وقف مسلمو المغرب حيال تلك الطائفة المبيحة موقف مسلمى المشرق من القرامطة ، فحاربهم الأدارسة والأموية والشيعة واجتاز جند المنصور بن أبى عامر البحر إلى بلاد المغرب فلم يغنوا شيئاً ، ثم نهض لقتالهم بلكين بن زيرى فى قبائل صنهاجة فقهر أبا منصور وقتله وأفنى جيشه ، وأجاز المنصور بن أبى عامر للمرة الثانية جنده فأثخنوا فيهم قتلا وسبياً . ولم ينته أمر هؤلاء المفسدين إلا فى أخريات المائة الخامسة ، وبذلك يكون مدى أمرهم قرابة أربعة قرون . وهذا فيما نعلم أطول مدى أقامته أسرة متغلبة مبيحة .

الحالة الاجتماعية

للمرأة المغربية

يأتلف أهل المغرب الأقصى من شعوب ثلاثة : البربر والعرب واليهود ، وأكثر مايتولى اليهود من العمل أشتات المهن من تجارة وصناعة وليس لهم فيما وراء ذلك شأن عظيم ، غير أن أهل المغرب يذكرونهم كلما ناب خطب أو شبت فتنة أو أغير عليهم من حيث لا يعلمون .

ويقوم العرب والبربر على نظام القبائل والبطون ، وكان للمرأة العربية منذ الفتح الإسلامى نصيب أختها فى بلاد العرب من القيام على الأسرة والاتصال بالحياة العامة على نحو ما أسلفناه فى الجزءين الأولين من هذا الكتاب ، ثم أخذت المدنية الأندلسيّة تسرى على قَدَر فى جنبات هذا الإقليم ، وأخذ ملوك الدول الإسلامية المتتابعة يَنْهَجون المدن وينشئون القصور وينقلون إليها الكثير الموفور من مباهج الحضارة ومناعمها ، واجتلبوا الجوارى من الأندلس والعراق ، وحجزت طبقات السّراة والأشراف نساءها فى دور الحُرَم وأقاموا على خدمتهن وحجابتهن الخصيان من أرقاء الصقالبة ، وقد كان هؤلاء سبباً فى القضاء على دولة يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق حين استفحل أمرهم فى قصره ، فقد كان السلطان يخلطهم بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ، ثم رابته ريبة فى بعضهم فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير أستاذهم وحجب سائرهم ، فراعهم ذلك وأفزعهم . فبيتوا له الشر ودبروا له السوء حتى استأذن عليه واحد منهم يدعى سعادة وهو مضطجع فى فراشه فلما أنس الغِرّة منه وثب عليه وطعنه طعنات أردته قتيلاً .

ودرج أوساط أهل المدن على تلك السنة من إرخاء الحجاب حتى أصبح من مسنون عاداتهم ألا تخرج المرأة من دارها إذا أعوزها الخروج إلا فى جنح الليل

وإذا خرجت قنّعت سائر وجهها فلا يظهر منه شيء ، ولكنّ الحال أخذت تتبدل رويداً فى هذا الجيل ، وبدأ نسوة هذا العصر ينحسرن عن هذا الضرب من الحجاب فهن يخرجن الآن فى وضح النهار ، ويتركن ما كثف من الحجاب إلى ما شفّ منه ، ويأخذن مأخذ نساء المشرق الأدنى من الثورة ما كان عليه أمهاتهن من عزلة واحتجاز . على أن ذلك لم يجاوز أهل المدن ، أما نسوة البادية فقد بقى لهن أكثر ما كان لأمهاتهن من فطرة وطبع وأخلاق

حالتها الفكرية

لم تكن المرأة المغربية بنجوة عما كان عليه الرجل من علم محدود ، فقد جاذبته أسباب ذلك العلم وظهرت فى بعض نواحيه ، ويتحدث أهل المغرب عن كثير من النساء تناولن الشعر والنثر وإن لم يكن فيما تناولنه شيء يستحق التدوين .

وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصى حفظ القرآن الكريم بقراآته جميعاً ورواية الحديث ودرس الفقه والأصول وما إلى هذه من علوم الدين ويذكر أهل ذلك الإقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جمعن إلى النفاذ فى ذلك كله حفظ مدونة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه وهى أكبر المطوّلات الجامعة فى الحديث والفقه

وفى إقليم شنقيط حيث البداوة التى لا تشوبها كلفة العيش ولا رفاهة الحياة يسير النساء فى مساق الرجال من درس علوم الدين وقراآت القرآن الكريم . وهنالك تعقد المحافل لامتحان الحفاظ الذين حفظوا الكتاب الكريم بمختلف قراآته فيجلس أشياخ القراء صفاً ممدوداً ويجلس الحافظ أمامهم وظهره إليهم ويتلو ما يطلبون تلاوته منه مروياً بما يقترحون عليه من الروايات . ولا بأس أن يكون فى هذا المحفل طائفة من النساء .

واليوم يقف التعليم الفرنسى فى بلاد المغرب الأقصى قبالة التعليم الدينى ، ولكل من التعليمين خصوم وأشياع . وقد بث الفرنسيون مدارسهم فى عامة مدن المغرب الأقصى فأقبل عليها المحدثون إقبالا عظيماً وصارعت اللغتان الفرنسية والأسبانية اللغة العربية فى المدن الساحلية حتى إنك تطوف بأرجاء طنجة فلا تكاد تسمع كلمة عربية خالصة من رجل أو امرأة .

واليوم تجد فى تلك البلاد طائفة ظاهرة من النسوة اللاتى تخرجن فى العلوم الدينية وأخرى من اللواتى تخرجن فى المدارس الفرنسية .

ومن الطائفة الأولى :

السيدة الشريفة فاطمة الزهراء ابنة السيد محمد بن احمد الادريسى

تحفظ القرآن الكريم بقراآته ، وتحفظ كثيراً من كتب الفقه والحديث ، ولها فوق ذلك صلة وثيقة بالعلوم العصرية ، ولم تبارح دار أبيها قط ، وتخرجت على أبيها وجدها

السيدة عائشه الشنقيطية :

تخرجت فى شنقيط ، وانتقلت إلى مراكش ، ولها بها منزلة طيبة ومقام محمود وقد برعت فى العلوم الدينية والعربية وحفظت سبعمائة حديث وأخرجت بعض الكتب والرسائل .

ومن الطائفة الثانية :

السيدة زينب الغرنيطية :

من سلالة أندلسية ، تخرجت فى المدرسة الفرنسية بفاس ، وعنيت بدراسة

الأدب العربى، وتكتب إلى جريدة الشهاب بالجزائر مقالات طيبة فى الأخلاق والاجتماع.

السيدة خديجة المرينية :

من أهل الرِّباط ، تخرجت فى مدرستها الحكومية وأقبلت على دراسة الأدب العربى حتى تسامت فيه ، ولها كتاب فى التدبير المنزلى ولعل لها غيره من المؤلفات

ولا نحاول هنا أن نستقصى الطبقة الظاهرة من متعلمات المغرب ، فحسبنا أن ندل عليها بهؤلاء . على أننا نقول : إن الفصل الحاسم بين العلوم الدينية والمدنية وفصم الأواصر بينهما ليس من شأنه أن يخرج المرأة الصالحة للحياة. فكل ما رُكب فى المرأة من عاطفة متوثبة ووجدان متأثر وحس دقيق إنما ينزع إلى الدين ويسعى إليه ويستنير به ، الدين وحده عصمة المرأة ومنار وجدانها ، ومثار الحنان والرحمة والبر فى نفسها ، ومعقد الشرف والأمانة من خلقها . فإذا فصمْت ما بينها وبينه من عروة وسددت ما بينهما من طريق ، فقد سلبت منها الجُنَّةَ الواقية وأوردتها المورد الوبىء. وقد عرف ذلك الافرنج فَطبعوا البنت منذ جداثتها الأولى على غرار الدين وجعلوه مستق خلقها ومصدر قوتها ومشكاة حياتها سواء فى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم وأشرافهم ودهماؤهم . وأى حصانة للمرأة أقوى من أن تراقب الله وتستمع قوله وتتلو آيهُ ، وتمثل فى الصلاة بين يديه ، وتمتلىء مشاعرها بذكر جلاله وعزته ، وناره وجنته ، وما يظفر البررة الأخيار من قربه ومحبته

وإن من أوهن الرأى أن نحاول إصلاح البنت بقطع ما بينها وبين أمهاتها السالفات من سُنَن وعادات ، وتدخلها فى غمار فئات من النساء ليس لها ما لهن من طبع وتكوين ، فانك بذلك تخرج المرأة الحائرة الثائرة المتمردة التى تزدرى الماضى ويزدريها المستقبل ، فهى هابطة بين القريتين ، لا شرقية ولا غربية ، وليس

لها سمة ولا شخصية . تحاول أن تحاكى المرأة الأوربية فيأبى عليها بُعد ما بين الفطرتين فتقنع من المحاكاة بظواهر ملْهية ، كل ما فيها من الأثر أنها تغرها من نفسها وتحرفها عن دينها وتفتنها عن الطريق القويم . وليس من الخير فى شىء أن تحمل المرأة الشرقية على نسيان ماضيها ، ولكن الخير كل الخير فى إصلاح ذلك الماضى وتهذيبه وإحكام الاعتصام به .

تلك كلمة لا نخص بها هذا الإقليم من العالم الإسلامى ، ولكننا نعم بها المسلمين فى أقطار الأرض ، فهم الآن على سَنن واحد من الحيرة فى تعليم البنت وفصم ما بينها وبين الدين من صلة وأسباب ، ولو أنهم اختطوا لها النهج الواضح من تاريخ المرأة العظيمة فى الإسلام أيام كانت مناط الرحمة والود للأسرة ومغرس النبل والسمو للولد ومعقد الحمية والعصبية للعشيرة مع تزويدها بما تقتضيه حاجة العمران من مبادىء العلوم والفنون التى تدعم كيان المنزل وتقيم نظام الحياة — لو أنهم نهجوا لها هذا الطريق لأوجدوا منها المرأة التى تؤلف الأسرة السعيدة والأمة المجيدة والوطن العظيم

لقد خلقت المرأة لتكون قوة من قوى الوحى والإلهام فى نفس الرجل ، فهى كالروح السارية تحرك الأحياء ولا تُرَى ، وكالعقل المنير يضىء الشعاب ولا يُحَس وكالكهرباء الدافعة تملأ الوجود ولا تُدرك . هى خَلْق قوام حياته الجود بالنفس والفناء فى سعادة الجماعة ، واحتمال الآلام المضنية والأهوال المُروِّعة فى راحة الزوج والولد ، وهى كعود الثقاب ينشر الضوء فى كل شىء ثم يحترق . تلك هى المرأة التى جعل الله السعادة بين شفتيها ، وجعل الجنة تحت قدميها ، وفرض لها من الطاعة فى رقاب الأبناء أضعاف ما فرض للآباء . هى سر عظمة الأمة ومبعث قوتها ومشرق صفوها وسعادتها . فإذا تنكبت تلك المَحجّة وانحرفت عن هذا السبيل فثارت على البيت والولد وانكشفت فى المجامع والأندية ، وانغمرت فى الملاعب والملاهى ، وراحت

تعلن عن نفسها بشقاشق القول وفضول اللسان ، فهنالك الويل والوبال ، وهنالك الفناء والدمار . ! ولا تقل إن مثل ذلك كائن فى بلاد المدنية الحديثة . ففى تلك البلاد خير وشر ، ومن شأن الجسم القوى أن تقاوم قوته ما قد يلم به من ضعف وفساد ، فهنالك الخير يطوى الشر ويحمله ، وهنالك نار الجد تنفى زيف اللهو وتحيله . على أن كثيراً من كتاب تلك البلاد ينظرون إلى ما أصاب المرأة من شطط واندفاع فيقولون إن هذا انتحار للأمة سريع الأجل ! فما بالك بمن يأخذ بذنب الشر ويترك ناصية الخير . فالحياة عنده لهو ولغو وضجة وإعلان

ألا فليعلم القوم أن المرأة قطب الحياة ، فإذا استقام استقامت ، وإذا تمايل اندكت ، وما قوامه إلا الدين ، فهو الأساس الثابت والبناء المتين

مُعْجَم

بما ورد فى تفاريق هذا الجزء من الأعلام وما يحتاج الى الشرح من الألفاظ(١)

الهمزة

أَبَجّ	الأبج الممتلىء ، والغليظ من العيدان
الأُبُلَّة	بلدة على شاطىء دجلة فى منعطف الخليج الذى يدخل مدينة البصرة وكانت من أعظم منازه الدنيا
أَحصّ	الأحص من الطير القليل ريش الجناح ومن الرجال القليل شعر الرأس
أحوَى	الأحوى ذو الحوة وهى الحمراء المائلة إلى السواد والعرب تستحسن ذلك فى الشفاه وأنثاه حوّاء
أذربى	نسبة إلى أذربيجان وهى إقليم من أعظم أقاليم الفرس قصبته تبريز
أروم	جمع أرومه : الأصل
أزَج	الأزج ضرب من الأبنية ، وباب الأزج محلة ببغداد
أُسَى	جمع أسوة وهى القدوة من كل شىء
أشط	من الشطاط بفتح الشين المشددة وكسرها : الطول وحسن القوام
أشكل	الأشكل الذى يجمع بين الحمرة والبياض
أغمات	اسم لمدينتين متقابلتين قرب مراكش
أَغَنّ	الأغن من الظباء الذى يخرج صوته من خياشيمه
أفياء	جمع فىء : الظل

(١) أثبتنا الألفاظ فى هذا المعجم على صورتها من الكتاب ، ولم نراع فيها أصل الاشتقاق ليسهل الرجوع اليها

أقفزة جمع قفيز مكيال يسع ثمانية مكاكيك، والمكُّوك صاع ونصف أو نصف الويبة

الإمامية فرقة من الشيعة ، وهم القائلون بإمامة اثنى عشر إماماً، أولهم الإمام علىّ المرتضى كرم الله وجهه ، ثم ابنه الحسن المجتبى ، ثم أخوه الحسين شهيد كربلا ، ثم ابنه على السجاد زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه موسى الكاظم ، ثم ابنه على الرضا ، ثم ابنه محمد التقى ، ثم ابنه على النقى، ثم ابنه الحسن الزكى ،ثم ابنه محمد الحجة ، وهو المهدى المنتظر عندهم . يقولون إنه دخل مع أمه وهو صغير سرداباً بالحلّة على القرب من بغداد ففقد ولم يعد ، فهم ينتظرونه إلى الآن ، وفى اعتقادهم أنه سيخرج إذا فشا الظلم وعمت الفتنة وفسد الزمان فيرد الناس إلى الهدى ويؤلف بينهم جميعاً .

الباء

البَذَاذة سوء الحال ومنه فلان بذ الهيئة وباذها أى رثها

بنان سمى بهذا الاسم ذكور وإناث ، ومن الذكور بنان المغنى ، ومن الإناث جارية الفضل بن العباس الهاشمى ، وكانت مغنية شاعرة

التاء

ترضخ من رضخ الحصى والنوى كسره

الثاء

الثَّنَايا جمع ثَنِيَّة : الطريقة فى الجبل

الجيم

الجِرَان مقدم عنق البعير من منحره إلى مذبحه

الجرائد　جمع جريدة وهى الخيل التى لا رَجَّالة فيها والبقية من المال

جَزُور　البعير أو هو خاص بالناقة المجزورة وجمعه جزائر وجزر

الجُمَان　اللؤلؤ أو حبات على شكله من الفضة

جَمَش　بفتح الميم مشددة ومخففة غازَل وداعب

الجُون　جمع جَوْن وهى من النبات الضارب إلى السواد لشدة خضرته والأحمر والأبيض والأسود ، ومن الإبل والخيل الأدهم أى الأسود

الحاء

حَسَك　نبات شائك شوكه ذو ثلاث شعب

حَصَان　المرأة العفيفة أو المتزوجة

الحَوْذَان　نوع من النبت ناضر الزهر مشرقه

حيازيم　جمع حَيْزوم : وسط الصدر ، أو ضِلَعُ الفؤاد ، أو ما اكتنف الْحُلقوم من جانب الصدر

الخاء

خَنَث　الخنث التكسر والتثنى

الخَوَرْنق　قصر للنعمان بن المنذر بالحيرة

خَيْف　الخيف كل هبوط وارتقاء فى الجبل ، وهنالك أخياف كثيرة : منها خيف مِنَى ، وخيف سلَّام ، وخيف النَّعَم

الدال

دابق　قرية قرب حلب عندها مرج معشب نزه وبها قبر سليمان بن عبد الملك

دَبيق　بلدة مصرية بين الفَرَما وتنيس وكان ينسج بها صنف شائع من الثياب يسمى الديبقية.

دَرَسَ　درس الرسمُ ودرسته الريح محته .

دَنّ　إناء أطول من الحُب (الزير) يحفظ فيه الخمر ويحتفر له ويوضع فى الأرض قرابة نصفه .

الراء

رُزَام　وقد مرّت على المصحح مضمومة فى الطبع فلم ينتبه لها — صوت البعير الذى ثقل عن النهوض أو صوت الناقة إذا رئمت ولدها أى أدركها الحنان له .

الرَّعيل　القطعة من الخيل أو مقدمتها .

السين

سَرَارى　جمع سُرِّيّة وهى الأمة التى بوأتها بيتاً وتسررها وتسراها اتخذها سرية

السَّرْو　شجر ، وما ارتفع من الوادى .

السَّعْدان　نبات شائك ترعاه الإبل .

السَّنَد　ماقابلك من الجبل وعلا عن السفح .

سَوَاهِم　متغيرات الوجوه حزناً ودهشة .

الشين

الشَّعانين　ومعناه بالعربية التسبيح ويسمى عيد الزيتونة وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ذكرى يوم ركوب المسيح اليعفور (الحمار) فى القدس ودخوله صِهْيَون والناس يسبحون بين يديه .

الصاد

الصَّالى	من صَلَى اللحم إذا شواه أو صلا يده بالنار سخنها أو صلى النار قاسى حرها .
صَرائم	جمع صريمة أو صريم قطعة الرمل من السكثيب .

الطاء

طَارمة	من الطُّرْم وهو ضرب من الشجر
الطَّفلة	الفتاة الرَّخْصة الناعمة .

العين

عَبِير	العبير الزعفران أو أخلاط من الطيب .
عَجْفَاء	من العَجَف وهو الهزال .
العُفْر	جمع عفراء وهى من المواطن كل أرض بيضاء لم توطأ
العِلج	الرجل من كفّار العجم .
العَيْر	حمار الوحش
عيسى باذ	ضاحية من ضواحى بغداد إلى الشرق منها ومعنى باذ بالفارسية عمارة فهى عمارة عيسى والمراد به عيسى بن المهدى وكانت أقطاعاً له

الغين

غَالِيَة	الغالية ضرب من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن
اغتباق	الاغتباق الشرب بالعشى والغبوق اسم للشراب
الغَوْر	قاع كل شىء

الفاء

فىء	الغنيمة والظل ينسخ الشمس

القاف

القائم　　بنية كانت قرب سامرا من أبنية المتوكل

القِنِّينَة　　إناء من زجاج للشراب

قَهَارِم　　جمع قَهْرَمَان وقهرمانة وهو المدبر الحفيظ على ما تحت يده

قين　　القين الحدّاد

الكاف

الـكَلْفَاء　　من الـكَلَف وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم ولون بين السواد والحمرة

اللام

اللَّجُون　　من الإبل الحَرُون

لَسَب　　يقال للعقرب إذا أنفذت إبرتها لسبت

اللَّيَاح　　قمر لَيَاح زاهر ناصع

الميم

متالِع　　المتالع مسايل الماء من المرتفعات

المثانى　　جمع مثنى وهو الوتر الثانى من أوتار العود

المُدَبَّرَة　　من الجوارى التى يقول لها سيدها أنت حرة بعد موتى وهى لا تباع ولا تورث ، ومثلها المدَبَّر

مُزَنَّرَات　　لابسات الزنانير جمع زُنَّار وهو ما يشد على وسط النصارى والمجوس

المِسْح　　الـكساء من الشعر وجمعه أمساح ومسوح

المُسَهَّمَة　　ثياب تشبه نقوشها السهام

المَطيرَة وقد صفها الطابع بضم الميم وسها عنها المصحح — قرية من نواحى سامَرّا ، وكانت من متنزهات بغداد

المِقْلَى آلة القلْى أى الانضاج

المِهْرَجان — بفتح الميم — اليوم التاسع من شهر أبيب وهو سادس أيام ستة تقام فيها أعياد المهرجان وأصله عيد فارسى وعنهم أخذه القبط واتخذه العرب أيضاً موسما يحاكون فيه الفرس وهم يتيمنون فيه بإهداء الأترج والسكر والنبق والسفرجل والعناب والتفاح

والمهرجان — بكسر الميم — احتفال الجمع وازدحامه

النون

نَبَطىّ نسبة إلى النَّبَط وهم جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين

النَّظَّام ابراهيم النظام إمام المعتزلة وحجتهم وأقدر أهل عصره فى الجدل والمنطق

نَمْتَار نجتلب المِيرة أى الطعام

نمرقة بتليث النون والقاف الوسادة أو الطَّنْفَسَة

النَّيْروز وهو عيد الربيع وعيد السنة الجديدة عند الفرس وعنهم تناقله كثير من الأمم وهو ستة أيام وفى ليلته يقف بباب الملك فتى صبيح الوجه فاذا أصبح دخل عليه غير مستأذن فيقول له الملك من أنت ، ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولأى شىء وردت وما معك فيقول أنا المنصور واسمى المبارك ومن قبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ثم يجلس وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفى .

الواو

وَشيجة	الوشيجة شجر الرماح واشتباك القرابة
الوَلَاء	المِلْكُ والمولى المالك والعبد والمعتِق والمعتَق
وهاد	جمع وهد ووهدة — الأرض المنخفضة

الياء

يَسْتشرى	يشد غضبه
يلتدم	يلطم وجهه
يَلى	يتولّى الأمر

مراجع الكتاب

تلك جملة الكتب التى رجعت عليها فى تحرير هذا الجزء من الكتاب

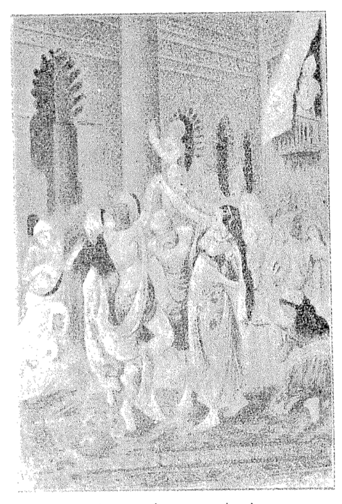
التاريخ	المؤلف
تاريخ الأمم والملوك	الطبرى
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون
الكامل	ابن الأثير
مروج الذهب	المسعودى
النجوم الزاهرة	أبو المحاسن يوسف الأتابكى
كتاب بغداد	ابن أبى طاهر طيفور
تحفة الأمراء	الصابى
وفيات الأعيان	ابن خلكان
الفخرى	ابن الطقطقى
الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينورى
بيان المغرب	الأزهرى
الإحاطة فى أخبار غرناطة	لسان الدين بن الخطيب
نفح الطيب	المقرى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب	التميمى المراكشى
التشريع الإسلامى	
تاريخ التشريع الإسلامى	الخضرى
المدونة	مالك بن أنس
تيسير الوصول	الشيبانى
رد المحتار	ابن عابدين
الأدب والاجتماع	
الأغانى	أبو الفرج
الأمالى	أبو على القالى
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب	ياقوت الرومى

التاريخ	المؤلف
المغرب فى حلى المغرب	ابن سعيد
مصارع العشاق	السراج
نهاية الأرب	النويرى
المحاسن والأضداد التاج رسالة القيان	الجاحظ
المحاسن والمساوىء	البيهقى
شرح مقامات الحريرى	الشريشى
محاضرات الأدب	الراغب الاصفهانى
العقد الفريد	ابن عبد ربه
يتيمة الدهر	الثعالبى
قلائد العقيان	الفتح بن خاقان
الخطط	
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنه والبقاع	
معجم البلدان	ياقوت
الأزمنة والأمكنة	المرزوقى
رحلة ابن جبير	
رحلة ابن بطوطة	
صفة المغرب	اليعقوبى
مسالك الأبصار	ابن فضل الله العمرى
الفرق الإسلامية	
الفصل فى الملل والأهواء والنحل	ابن حزم
الملل والنحل	الشهرستانى
الفرق الإسلامية	من صبح الأعشى للقلقشندى

فهرس

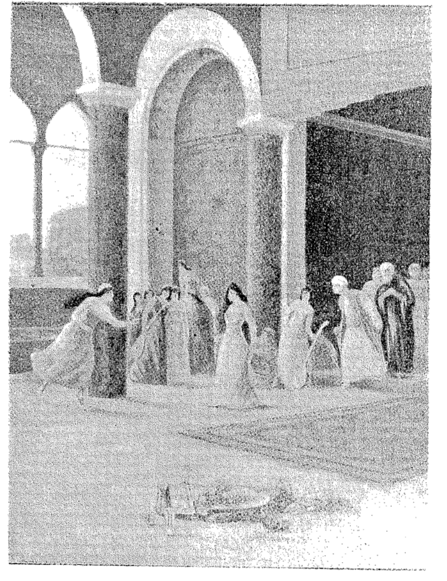
الجزء الثالث من المرأة العربية

فى جاهليتها وإسلامها

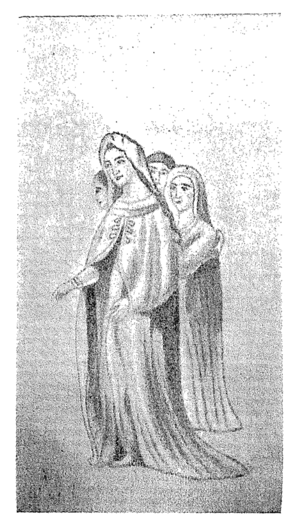


جاريتان بغداديتان ترقصان

ص ١٧

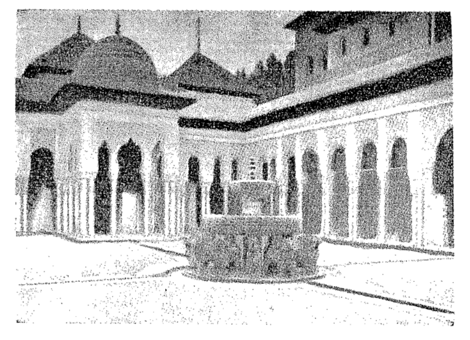


فى قصر من قصور بغداد



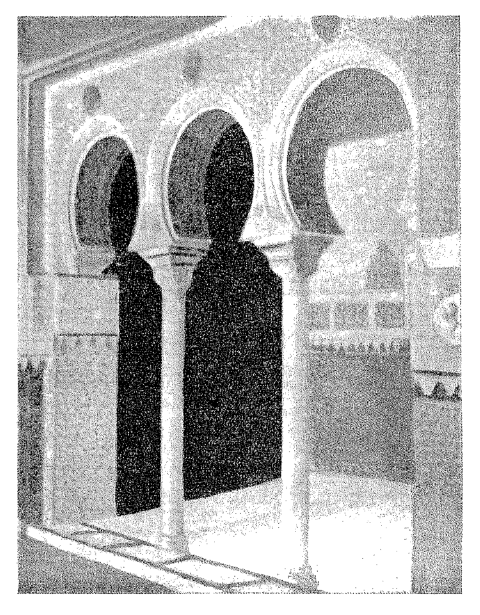
فتيات أندلسيات بالزى المراكشى

ص ١٢٧



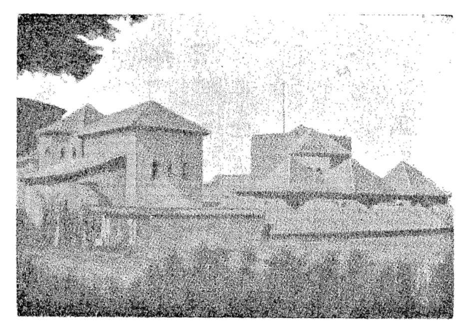
ساحة الأسود بقصر الحمراء بغرناطة

ص ١٣٣



مخدع الملكة في قصر أشبيلية

ص ١٣٥



الجانب الشرقي من قصر الحمراء بغرناطة

ص ١٤٣



فتاة مغربية أعرابية من سكان جنوب المغرب الأقصى

ص ١٥١



سيدة مغربية من المنطقة الاسبانية وهى مرتدية الزى المنزلى المراكشى

ص ١٥٤



طائفة من السيدات المغربيات يشاهدن موكب (سلطان الطلبة) وهو موسم من مواسم المغرب يجتمع فيه الطلبة المغربيون وعلى رأسهم سلطانهم الذى اختاروه لهذا اليوم ويتولى ملك الطلبة ثلاثون يوماً تقدم له فيها كل مراسم الملك وسمات السلطان وتكون ولايته هذه من قبل سلطان المغرب بمرسوم سلطانى وهناك يتقبل (سلطان الطلبة) الهدايا والهبات من كل ذى شأن بهذه البلاد وكل ما يجمع ينفق على ترفية الطلبة وتنزيههم وما بقى من ذلك يوزع عليهم على سواء



ميدان (الصويرة) من ثغور المغرب على المحيط الاطلنطى
وتمتاز على ثغور المغرب بجودة هوائها وحسن منظر المحيط المنعطف عليها

ص ١٥٧


Bibliotheca Alexandrina
0402817